أنطونيو تابوكي

ساحة إيطاليا

قصة شعبية مؤلَّفة من ثلاث
حقب وخاتمة وملحق



ترجمة: وفاء شوكت

ساحة إيطاليا

• أنطونيو تابوكي
• ساحة إيطاليا
• ترجمة وفاء شوكت

• الطبعة الأولى 2000
• موافقة وزارة الإعلام رقم 48657 تاريخ 2000/7/29
• الناشـــــر : ورد للطباعـة والنشـر والتوزيـع
سوريـة ـ دمشق ☎ 3321053
• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
• الإشـراف الفني : د. مجد حيدر
• لوحـة الغلاف : د. أحمد معلّا
• الإخـراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
• التـوزيـع : دار ورد ☎ 3321053

أنطونيو تابوكي

ساحة إيطاليا

قصة شعبية مؤلَّفة من ثلاث
حقب وخاتمة وملحق

ترجمة: وفاء شوكت

عنوان الكتاب الأصلي:

Piazza d’Italia

إلى زي، ميشيل وتريزا

ملاحظة الكاتب على الطبعة الثانية

كتبتُ «ساحة إيطاليا» عام 1973 ونشرتها عام 1975 . مضى عشرون عاماً، ويبدو لي من الصواب إعادة طبع هذا الكتاب، على الأقل لكونه مفقوداً منذ زمنٍ طويل. أعيد طباعته كما هو معيداً الحاشية الأصلية، التي كان قد فُضّل عليها اسم «رواية». في ذلك الوقت، كانت كتابة هذا الكتاب تسليتي. كان الصيف حاراً في توسكانيا، وكان عليّ انتظار شهر أيلول. وظهر الكتاب بفضل إرادة صديقي أنريكو فيليبيني، صاحب الذكرى الغالية على نفسي، وبغلافٍ رباعي سخي من سيزار سيغر، حيث مازلت أكن له كل الامتنان حتى الآن.

لم أدرك، في ذلك الوقت، أنني سأصبح كاتباً بهذا الكتاب. فالأشياء تحدث، ثم نفكّر فيها بعد ذلك. إن إعادة قراءة ما كتبه المرء نفسه بعد عشرين عاماً، لها تأثير غريب، وكذلك، إعادة طباعة كتابٍ هو «الأنا» الخاصة بنا في تلك الحقبة. هل هذه «الأنا» هي نفسها «أنا» اليوم، أو هي «أنا» شخص آخر؟ لا أعلم، وربما ليست لدي الرغبة في معرفة ذلك. أعرف أن هذا الكتاب يشكّل جذوري، جذوري كرجلٍ وككاتب. كل شيء يعود، أو لايعود أي شيء. كلٌ يقول الفكرة التي تستهويه.

أيلول 1993

أ. ت

انفكّت العقدة

عندما تلقّى غاريبالدو، في هذا اليوم العبثي، الرصاصة في وسط جبهته (حفرة صغيرة بحجم رأس دبوس، لا بحجم زر)، أراد، وهو يسقط في لمعان الساحة، أمام نصب «الجليل» بالضبط، أن تكون له الكلمة الأخيرة. لكن لسانه لم يطلق سوى قرقرة إسهاليّة لم يسمعها سوى الذين كانوا قربه:

«ليسقط الملك!».

انزلق الحجر من يده، وتدحرج نحو قناة نافورة الساحة، الصغيرة. وبقيت ابتسامة مكّارةٌ نبيهةٌ متحجّرة على وجهه الذي يقول: «أي أحمقٍ أنا»، حيث كان لديه الوقت، خلال مسيرته القصيرة من النّصْب إلى الأرض المغبّرة، ليدرك أن ضباب الموت قد شوّش كلماته الأخيرة، وخاصةً تلك الكلمات إياها. لم تخرج الرصاصة التي سَعَتْ إلى جبهته، من بندقية الفتيلة(*)، للحرس الملكي، بعدما كان الملك قد رحل، وصار دستور الجمهورية القائم على العمل هو الساري المفعول[1]. واليدان المتحسستان اللتان فكّتا العقدة السوداء إلى شريطين كبيرين مُتطايِرَيْن، فَكّتا أيضاً، كما تفعل إشارةُ كاهن،

(*) بندقية الفتيلة (بندقية من نوعٍ قديم كانت تطلق بفتيلة ملتهبة).

تجَمهرَ الحشدِ الصاخب الذي تفرّق في ضوء تموز. بقي غاريبالدو وحيداً، مع هذه الابتسامة الساخرة في عينيه الجاحظتين، أمام جميع تلك الخوذات المصطفّة التي ينظر كل منها إلى المسدس المسدّل المقابل لها. ظهرت أسمرا بقدمين حافيتين، مرتدية وزرة أمامية عجيبة، تحمل ثمرتي فراولة هائلتين مطرّزتين على الجيبين، واجتازت الساحة ركضاً. لكنها لم تستطع فعل شيء سوى إغماض عينيه، وهي تفكّر على طريقتها، بأن الطالع الفلكي هو الذي ربح. كانت زلميرا قد قالت لها، إنه لم يكن باستطاعة السّميد(*) أن ينطق بوضوح في مثل هذه الأحوال. ثم إن الوقت في عائلة غاريبالدو يسير دائماً بطريقة خاصة.

(*) سميد (جريش لب الحنطة).

الحقبة الأولى

1. مايزال لدينا قليل من الوقت

كان الشيء الوحيد في الحياة الذي لم يستطِع غاريبالدو فهمه، هو الموت. راح ينظر إلى والده المسجّى في النعش، ويداه مطويتان على بزّة عرسه، وجبينه محاط برباط أبيض، لقطع السيلان الأصفر. في هذه اللحظة، أغاثَهُ والدُه: جلس على قفاه، سحب ساعته من جيبه وقال:

«مايزال لدينا قليل من الوقت».

ثم طلب نصف سيجار، وحاول، وهو يدخّن بلذّةٍ هادئة، أن يُفهمه، إن لم يكن ماهو الموت، فعلى الأقل، ماهي الحياة.

تحدّثا طوال الليل، أو بالأحرى، اكتفى غاريبالدو بالاستماع، متفادياً أدنى اعتراض كي لا يجعله يضيّع الوقت. عند الفجر، دخل الأب ثانيةً في حالة الموت باستسلام، وقَبِل دفنه مثل جميع الموتى الآخرين، وسار على طريق المقبرة مُرْتَجّاً على عربة ليونيدا. لكن غاريبالدو كان يعلم، منذ الآن، أن الماء الذي يدير الطاحونة هو ملك للجميع، وكذلك القمح الذي تطحنه، شأن طيور الغرّاء(*) التي تنزل في شهر تشرين الثاني نحو المستنقعات، والتي هي مُلك للجميع، وكان

(*) غرّاء (طير من طوال الساق).

يعلم أيضاً أن الحُرّاس الملكيّين كانوا موجودين ليقتلوا أولئك الذين أدركوا ذلك.

لم يحتفظ من والده إلا بالذكرى، وكذلك بالإسم الذي أخذ الناس، وأولهم أمه، ينادونه به ابتداءً من ذاك اليوم.

«هذا لأنه، خلالَ أربع سنوات، لم أستطع حتى الآن، التعوُّد على اسمك الحقيقي، ڤولتورنو».

2. إنهم يغيّرون الملك

كان بلينيو في عمرٍ لايدرك المرء فيه كم له من العمر، وكان يحاول أن يرى الساحة من خلال تجمهر الحشد. وجيوبه ملأى بالكريّات الصغيرة الزجاجية من عقدٍ قدَّمته له الآنسة سشيني التي لم تكن قد أصبحت مدرِّسته بعد. وأشجار الدلب الصغيرة التي تحيط بالساحة تبكي أوراقها الأخيرة. أسند الرجال سلّماً على النصب، وأحاطوا ثوب الدوق الكبير بالحبال.

وصرخوا «أوه ـ أوه!»، كي يهتاجوا.

صاح رجل بدين يبدو أنه كان رئيس الفريق:

«كلنا معاً!».

سقط الدوق الكبير بصوتٍ أصم على تراب الساحة، وسط غيمة من الغبار. صفّق الناس، وحرّكت الآنسة سشيني، المرتدية ثياباً بيضاء، والجالسة على المنصة إلى جانب الرجل صاحب النظارات الذهبية، منديلها.

ربط الرجال بقوةٍ التمثالَ الجديد، الذي مايزال مغلّفاً بغطاء، بآلة رفع الأثقال.

صرخ من يبدو أنه رئيس الفريق:

«هيّا! ارفعْ!».

وبدأ الموسيقيون، التوّاقون للبدء بالعزف، يكسرون وضعية

الاستعداد. نزلت الآنسة سشيني من على المنصة، مستندةً إلى ذراع السيِّد صاحب النظارات الذهبية، واجتازت الساحة وسط صمت الانتظار. انزلق الغطاء إلى الأرض، بعد قطع الشريط، مثل قطعة ملابس، وصفَّق الحشد، وعزفت الأبواق النشيد الوطني.

أحبَّ بلينيو هذا النصب الجديد أكثر بكثير: كان عبارة عن جندي يتطاير شعره في الهواء، يتدلى سيفه على جنبه، ويمسك بين ذراعيه فتاةً صغيرة يقدّمها لسيدٍ مفعم بالعظمة له شاربان معقوفان. كانت الفتاة تمد يديها، ممتلئة بالفرح، وفوق العصابة التي تزيِّن صدرها كتب اسمها: إيطاليا.

سأل بلينيو وهو يشد والده من كمه:

«من هذا؟

ـ إنه غاريبالدي الذي يعيد إيطاليا للملك.

ـ ومن هو غاريبالدي؟

ـ إنه بطل «العالَمين».

ـ والملك، مَنْ يكون؟

ـ إنه السيد الجديد»[2].

3. «بورغو»، فقط

كانت ماتزال تدعى بورغو على الأرجح، في ذلك الوقت، بورغو ـ شيءٌ ما. ربما «بورغو ـ لاتور» بسبب هذا الشيء الشبيه بالبرج القديم المتهدِّم، الذي كانت فائدته الوحيدة الظاهرة، هي كونهُ مأوى للغربان والزاغ، أو ربما «بورغو إي بادولي» بسبب المستنقعات المليئة بالقصب، والتي كان على الفاشية أن تصلحها فيما بعد، مع الأمر بإقامة احتفالات زراعية، لم يشارك فيها أحد؛ أو «بورغو آلا مارينا»، لأنه، إذا ما تبعنا الطريق الكبيرة المغبرَّة، وإذا ما كانت لدينا قدمان قويتان، نصل إلى بحرٍ شاحبٍ محاط بكثبان من الرمل، كثيرة الدغلات، كانت النساء يخلعن أثوابهن ليُدخلن الماء بالسراويل

الصغيرة، عندما يخفّ قيظ الصيف. أو «بورغو أل كونفنتو»، لأنه كان يوجد، في أعلى التل، دير متهدِّم يتعبَّدون فيه إلى «عذراء الحليب»، حوَّلوه فيما بعد إلى مطعم ـ مرقص. وسيحتفظ، مع ذلك، بالإسم لدى الأخوات المسنَّات وقبَّعاتهن الكبيرة البيضاء.

أن تكون فقيراً في بورغو، معناه أن تقطع القصب في المستنقعات. كان الرجال يذهبون عند طلوع الفجر على عربات بطيئة. في تلك الساعة تكون القرية ماتزال غائمة الملامح بذلك البرج الغامض الذي يبحث عن حقيقته العملية في الضباب، ويُعلَّق مصباحٌ على القُبِّ(*) الخلفي لعربة المقدمة لفتح الطريق. لم تكن هناك أغانٍ، لِتَجَنُّب ابتلاع الهواء البارد، وكانت القبعة المُنْزلة حتى العينين، هي التوق إلى السرير. يصلون إلى المستنقعات عندما تكون الشمس قد ارتفعت عالية، ويدخل الرجال في الزوارق اثنين اثنين، أحدهما ليقطع، والآخر ليجدِّف، كل واحد بدوره. كانوا يتقدّمون على شكل دائرة، مثل مطاردي حيوانات وهمية، ولايعودون إلا عندما تمتلئ الزوارق. وعندما يحين وقت الظهر يأكلون الخبز والبصل تحت أشجار الحَوْر المحيطة بالمكان، ثم يعاودون الكرَّة حتى المساء. كانوا يصلون إلى منازلهم عند حلول الليل، مزيلين صمت القرية بصرير عرباتهم، وكانوا يذهبون يوم الأحد ليبيعوا القصب في الـ«فاتوريا ڤيتشيا»[3]، مالكة الجبال والبحيرة. يستقبلهم وكيل أعمال جسيم وبدين، يقوم دائماً بفك الحزام الذي يمسك التمدُّد المستمر لكرشه. وكان يملي الأسعار ولايسمح بأية مناقشة.

كان بلينيو يقطع قصب المستنقعات مثل الآخرين.

4. *هنا نصنع إيطاليا أو نموت*[4]

كان شعر غاريبالدو يتطاير في الهواء وهو ينظر من خلال منظاره. لو أن رفاقه قالوا له «انزلْ واحرس حتى نعود»، لنزل عن

(*) قُبّ (ثقب وسط البكرة أو الدولاب).

الباخرة، وبقي بقوة الإرادة، مزروعاً مستقيماً على الماء، متكئاً على بندقيته، ليحمي مؤخراتهم. لكن كان عليه الاكتفاء بتنظيف البنادق وتحضير الذخائر، لأنه كان فتياً جداً.

كان ساحل صقلية يشكِّل خطاً في الأفق، وبدأت القمصان الحمراء تبزغ.

5. إسمان مثل رحلة

قالت القابلة: «إنه صبي، وهو أصهب!».

كان جاهزاً للخروج ليذهب إلى البلدية، عندما نادته القابلة.

«يوجد واحد آخر. أصْهب أيضاً!».

قضى التوأمان على مشروعه بشأن إطلاق الاسم الأول. لم يوافقوا في دائرة الأحوال المدنية، على اسمي غاريبالدو وغاريبالدو.

احتد بلينيو وعاند، لكنه فشل. فجلس عندئذٍ ليفكِّر وألَّف مغامرته.

وقال للموظف الذي كان ينتظره: «كوارتو وفولتورنو»(د).

6. قميص أحمر ضيِّق

كان بلينيو يتذكّر أنه رأى والده، الذي كان بنَّاءً إلى حدٍ ما وهو يبني البيت الذي يقيمون فيه. كان كوخاً تقريباً عندما وُلِد، أرضيته من الطين المدقوق ومطبخه بجوار قن الدجاج. بعدئذٍ صنع والده أرضيةً من الغرانيت ومدفأة ضخمة من القرميد، كانوا يسهرون قربها حتى ساعة متأخرة في ليالي الشتاء، دون أن يجدوا الشجاعة للذهاب إلى غرفهم المثلَّجة. كان البيت من طابقين. الغرفة الكبيرة في الأعلى، تحت السطح، تستخدم لتجفيف العنب والطماطم على حُصُرٍ من خوص النهر؛ وكانت أيضاً غرفة نوم بلينيو وأغوستينو، الذي سرعان ما ترك المكان باكمله لأخيه بعد وفاته بالحمّى. وكان

والده، الذي يحب النباتات، قد زرع شجرة ليمون حامض أمام الواجهة، لصيقة بالمنزل، فأصبحت، بفضل هذا الموقع المناسب، والحائط الذي يحميها من تقلُّبات الطقس، شجرة عملاقة، وصلت حتى المزراب. وكانت تعطي حبّات ليمون صغيرةً جداً لاذعة، ذات طعم نفّاذٍ إلى درجة أنه كان بالإمكان غَمْسُ الخبز فيها عندما لايوجد شيء آخر يؤكل معه.

في هذا المنزل شهد بلينيو ولادة أطفاله الأربعة، وقد وصل قُبيل النهاية لكي يشهد ولادة الاثنين الآخَرين. في اللحظة نفسها، وبعد أن ولدت أنيتا، كان الطبيب يُخرج غاريبالدو الذي أقبل من جهة مؤخِّرته.

صرَّح مساء أحد الأيام:

«لم أعد أستطيع الاحتمال، يجب أن أرحل».

كانوا تحت مدخنة المدفأة، يدفعون عنهم برد الشتاء. وكانت إستيرينا بنظرتها الناعمة وبطنها المنتفخ كامرأةٍ حُبلى، تقلِّب إحدى الجمرات بالملقط. قالت:

«وتتركني في هذه الحالة؟».

دخل تيار هواء من المجرى وطيَّر الرماد.

«لقد ادَّخرتُ مالاً يكفي لتكوني مطمئنة. كل شيء موجود في الصندوق، وهو يكفي لمدة ستة أشهر.

- وماذا لو قتلوك؟

- ألا نموت هنا أيضاً؟

- متى تذهب؟

- غداً.

- لكن ما الذي يعذِّبك؟».

قام بلينيو بحركة مبهمة. وقال: «كل شيء. هذه الحياة. الأغنياء».

وكانت ليلة استعداد، لكن بلينيو لم يكن يريد شيئاً، ولا حتى صرَّة. أخرج من الصندوق القميصَ الأحمر الذي أصبح الآن صغيراً جداً ويفتح على مستوى الخصر.

قالت إستيرينا: «لقد سمنت».

قبّلته عند عتبة الباب، قبل بزوغ النهار. وكان آخرون ذاهبين معه، قَدِموا من القرى الواقعة على الجهة الأخرى من المستنقعات. كانوا قد اتفقوا، والتقوا على الطريق الكبير.

«إذا كان ولداً، سمِّه غاريبالدو، وإلّا فليكن أنيتا»[6]. دمعت العينان الحزينتان إشارة الموافقة.

قال بلينيو وقد وصل إلى البوابة، وهو سائر في طريقه: «شريطةَ أن يأتي وحده، هذه المرة».

7. تحيات موقَّرة

قالت لحية الطبيب الصغيرةُ: «يجب أن نبترها».

كان الانفجار قد طحن القَدم المدَلّاة، المعلّقة بالأربطة مثل نُذُر.

قال بلينيو: «اقطع إذاً هذا الخيط الرفيع».

لم يكن ذلك بالعمل شديد الصعوبة، مع أنه تمّ بسرعة وبلا إتقان، وسط الدخان والاضطراب الذي سبّبَهُ الهجوم بالمدفع[7].

بعد أن خاط الطبيب الأوعية الدموية، أخذ حوضه وتظاهر بالذهاب، ولكن بلينيو استوقفه. قال له بلهجة مصمّمة:

«هذه القدم ملكي، وأريد أن تعيدوها لي».

اجتاز روما على نقّالة، والقدم في يده تحت الغطاء. وكان يقول لرفيقيه اللذين يَقِلّانِهِ «من هنا، من هناك» وكأنه يعرف روما جيداً، مثل روماني. ومع ذلك، كان يسير على الفطنة مثل كلبٍ ضارٍ يقتفي

أثراً. وصلوا إلى مدى نظر القبّة، في الوقت الذي تغيب فيه الشمسُ خلفها. ارتسمت ابتسامة تَرَقُّب على وجه بلينيو الشاحب جداً. وبينما بدأ الاثنان الآخران يعطيان إشارات نفاد الصبر، طلب أن يُحْمَل حتى أسفل جدران سور حدائق الڤاتيكان. عندئذٍ سحب قدمه من تحت الغطاء ورماها بقوة كحجر. ثم قاداه إلى دكّان، حيث اشترى صورة للقديس - بطرس وأرسلها إلى «إستير». «لقد ركلتُ البابا «بييه» التاسع بقدمي. تحيّاتي الموقَّرة. المخلص لكِ بلينيو».

8. شَغَرَ مكانٌ حول المائدة

شاهد غاريبالدو والده يموت. كان بلينيو سميناً مثل كنيسة، وله كرش كالجبل وهو ممدَّد على طاولة المطبخ. وكان غاريبالدو، من الارتفاع الذي بلغه بأعوامه الخمسة، لايستطيع رؤية سوى الجَدَعة(*) التي تبرز من الساق اليمنى للبنطال. ذراع تتأرجح أثناء الاحتضار في الهواء، ملامسةً الأرض بقبضتها المضمومة. كانت والدته تنتحب في الغرفة وڤولتورنو يعرق في ركن قرب المدفأة. وبدا له أن والده، الذي كان يجلس إلى المائدة ظهراً، ويتكلّم بصوتٍ جهوري، من المستحيل أن يكون الآن ممدداً هنا ويتنفّس بصعوبة. لاريب في أنه بعد أن يرتاح سيقف، وينفخ بطنه، ويُخْرِج هذه الرصاصة التي سيسحقها بين أصابعه مثل بعوضة.

لكنه عندما استيقظ في اليوم التالي، لم يكن والده هناك، وبقي مكانه على المائدة خالياً إلى الأبد.

9. علامات على الرماد

راح ڤولتورنو ينمو في سكون وصمت، وكأنه يعرف الجانب الآخر من الأشياء. راح يمضي أيامه في ركن مسوَّرٍ صنعه بنفسه من

(*) جَدَعَة (ما يبقى من العضو أو الجزء المقطوع).

ألواح خشبية داخل الموقد، لم يشأ الخروج منه. كان يصرُّ بصمتٍ عنيد على أن تحضر له والدته الطعام؛ ويتابع بعينيه نصف المغمضتين، حياة العائلة في المطبخ، مرتدياً شبيكة(*). لم يكن يتكلّم، وكأنه عرف الكلام ورفضه. وكان كوارتو على الرغم من الحيوية المفرطة لألعابه لايريد تركه. كان يأتي ليتسلّى أمام ناظري أخيه ويحلّ محله حين يتوجّب أن يكونا اثنين، ويقصّ عليه حكاياتٍ يسمعها ڤولتورنو وعيناه شبه مفتوحتين، ويحضر له هدايا من حصىً برّاقة أو أزرار. يكاد المرء يعتقد بأنه الوحيد الذي يعرف سر جمود وصمت ڤولتورنو، وبأنه، لهذا السبب، لم يكن يتركه أبداً. كان تعلّقاً فيزيولوجياً لتوأمين، لجسدٍ يتقاسمانه: عندما يكون بعيداً عنه، يبدو قلقاً ومضطرباً، ينتفض فجأة، وتنتابه نوبات بكاءٍ غريبة، ويخاف من الظلام.

ويكفي أن يكون بقربه كي يستعيد كل حيويته المفرطة: عندئذٍ، يستعرض نفسه في ألعاب فيها الجرأة، ويُظهر، متباهياً، اندفاعات شجاعة.

في الليلة التي جاء فيها غاريبالدو وأنيتا إلى العالم، وبينما كان الطبيب والقابلة يقومان بالتوليد بالآلة، في غرفة النوم، ووالده يذرع المطبخ جيئة وذهاباً، نطق ڤولتورنو كلماته الأولى. كان قد أمضى اليوم في كآبة مبهمة يذرف بصمتٍ دموعاً شحيحة، ويقاوم بشجاعة حُمّى الرّبع(**). بعد الظهر داهمته نوبة حمّى عنيفة، وقشعريرة مستمّرة جعلت العرق يتصبّب على رموشه الصهب المحيطة بعينيه الفاتحتين. ولم يعرف بلينيو، الذي راح يقترب ليطمئنه، بماذا يرد عندما سمع الصوت البِكر لڤولتورنو يبوحُ له:

«أنا خائف. أنا خائف من كل شيء».

(*) شبيكة (نسيج قطني مشبوك الحبك).

(**) حمى الربع (حمى تلازم المريض يوماً وتدعه يومين ثم تعود إليه في اليوم الرابع).

قبلت العائلة ضمناً بهذا التفسير وتابع ڤولتورنو نموّه، لابِداً في عتمة سجنه، رافضاً العالم وراسماً إشارات على الرماد بعصا صغيرة.

10. *شاهدة القبر*

كانت إستيرينا قد وضعت جانباً قليلاً من المال، قليلاً جداً. وأنفقتْهُ بأكمله على شاهدة القبر التي أرادتها من حجر ترافرتين(*) وعليها النقش التالي تحت الإسم:

غاريبالديان(8)

حارَبَ في روما وفي كالاتافيمي

مات في الثلاثين من عمره

من أجل طيرٍ غَرَّاء.

11. *طفولة*

أصبح غاريبالدو، وهو يكبر، جميلاً ومليئاً بالحيوية مثل كوارتو، الذي راح يبدو، نتيجة غلطة من الطبيعة أنه توأمه. كانت تنتابه حالات مزاج مفاجئة. يلتمس الصحبة ولايثق إلا بنفسه. لايدع أحداً يمسّه. يشحب ويرتجف وهو يعض على شفتيه عندما يرى حرّاساً. وعلى العكس، ورثت أنيتا عن ڤولتورنو عاداته الصامتة والمتوحشة، وعينيه عديمتي الجمال وشحوب وجهه. كانت تحب الرماد والعتمة. تنظر إلى بعيد وترسم إشارات على الرماد.

كانت إستيرينا تأخذهم، يوم الأحد بعد الظهر، إلى المقبرة. أما ڤولتورنو فيذهب إلى هناك شتاءً فقط، عندما يكون الغسق قصيراً، وتخفيه فترات بعد الظهر الباهتة عن الناس. كانوا يقفون صفاً واحداً أمام القبر، متجهّمين تقريباً. لا يمكننا القول بأنهم كانوا

(*) ترافرتين (حجر جيري من مدينة تيبور بإيطاليا).

يصلّون، كانوا يتحدّثون مع بلينيو. وتسأل إستيرينا: «حسنٌ! كيف الحال؟»

كانت أشجار السرو ترتجف، وتمر نسمة هواء، وإذا كان الوقت صيفاً تركض عظايةٌ على الترافرتين.

«أما نحن فليس بوسعنا التذمُّر».

ثم يرحلون صفاً واحداً. بعد أن يرسموا إشارة صليب ثلاثية الرؤوس. وهكذا دواليك طوال طفولتهم.

12. الخوف من الآخرين

كان ڤولتورنو يُمغنط المخاوف. أدركت إستيرينا ذلك في الليلة التي كان بلينيو ينازع فيها، ممدداً على الطاولة، وبطنه مثقب برصاص الحارس ـ القنّاص. فاجأت نفسها تفكِّر في الغسيل المنشور في الفناء، وفي الغيوم الكبيرة التي تتكوَّم وتدفعها هبّات من الريح، واعترفت ببساطتها، أن هذا الشعور بالفراغ كان ألماً عظيماً، وهذا الذهول الذي يمنعها من التفكير في شيء آخر عدا هذه العاصفة الوشيكة الوقوع. لكنها ما أن خرجت إلى الفناء حتى عَصَرَ الغم معدتها. غمّ وحشي مطلق لم يترك لها الوقت للمقاومة: كان في آنٍ واحد ألماً، حباً مجروحاً، شفقة، اشمئزازاً، خوفاً من الحاضر والمستقبل. عادت وهي تترنح إلى المطبخ المظلم حيث كان ڤولتورنو يختلط بالرماد ويعرق بحمى الرُّبْع غير المفهومة. في نفسها حلّ فجأة فراغ اصطناعي لألمٍ سرق منها. عندئذٍ فهمت سر ڤولتورنو، نوبات الحمى التي يصابُ بها وعرقه ومنفاه الداخلي، وهكذا ركضت إلى غرفتها كي تبكي وحيدة، كما كان من واجبها أن تفعل.

13. عيون الجوع الجميلة

«ماما، لا شيء نأكله اليوم».

كانت إستيرينا تجيب:

«هذا جيد للعيون».

وبسبب هذا «اللاشيء»، الذي غالباً ما راح يتكرَّر، أصبحت لهم عندما كبروا عيون جميلة جداً، عميقة مثل الماء.

14. *داء الزمن*

ظهرت عند ڤولتورنو، على عتبة المراهقة، أعراض مرض جديد. كان يجيب بغتةً، على سؤال قد وُجِّه إليه في اليوم السابق، ويتذكَّر أشياء لم تحدث حتى الآن، ويعاني مرتين من الإحباط ذاته. كان هذا يشبه مِزاحاً، أو قصصاً صغيرة بريئةً لم يعرها أحد أي انتباه. لكنه في اليوم الذي ادَّعى فيه أنه تذكَّر تماماً أن كوارتو قد مات في أفريقيا في قلعة صغيرة محاصرة، وجدت إستيرينا أن الأمر باتَ يأخذ منحى مقلقاً وذهبت لزيارة زلميرا التي كانت ماهرة في السحر.

حرقت زلميرا زيتاً في صحنٍ صغير، ثم جمعته في قطعة من الكتَّان، وسكبته على ورقة صفراء. توزَّع الزيت إلى أربع قنوات، مشكِّلاً صليباً.

قالت زلميرا: «إنه شاعر. يعاني مِّن داء الزمن».

سألت إستيرينا: «هل هذا خطير؟

ـ لا.

ـ هل له علاج؟

قالت زلميرا: تلزمه امرأة، وربما طفل. لكن حتى مع هذا لا أستطيع أن أضمن لكِ شيئاً».

15. *إسبيريا*

مرَّت فصول شتاءٍ خاوية، رياح تعبر الشوارع، وأحزان ثقيلة. كان كوارتو يعيل الأسرة من عمله في إسطبلات مزرعة «فاتوريا ڤيتشيا». وهو منذ صغره أفضل خبير بخيول المنطقة: يعرف

السلالات والتهجين كما يعرف الأمراض ويربح ما يريد. يُشاهد ماراً، راكباً على صهوة جواد كُميت(*) قد عاود شراءه، شعره يتطاير في الهواء، والسوط في يده اليسرى، حتى ليَبدوَ سيّداً. كانت عيون الفتيات تلاحقه بشوق طافح بالرغبة. لكنه لم يكن مُلْكاً لأية واحدة منهن. كانت له عشيقة في الفاتوريا، وأخرى في القرية، وثالثة في ماوراء المستنقعات. وقد قال لهن جميعاً: «سنتزوج في شهر آذار».

كَبُر ڤولتورنو شاحباً وضعيفاً، في سجنه الطفولي المعتم. كان يقطع القرية، وشعره الوهّاج على وجهه ناصع البياض، ويمضي أياماً بأكملها على ضفة النهر، ثم يعود في المساء إلى مشيمته المصنوعة من الرماد، كما يعود المرء إلى علّة قديمة، ليكتب فيها أسراراً. كان يسجِّل مخاوفه، التي أوَثُ في الرماد من قبل، على شكل خربشات صغيرة متراصّة وغير مقروءة: يترك صفحات وصفحات تسقط في النار، مثل فراشات، قبل الذهاب إلى النوم. عندما يصبح الحزن ملّحاً أكثر كان يترك وريقاته السرّية ويروي قصصه بصوتٍ عالٍ، حتى ولو أن أحداً لايستطيع حلّ رموزها، لأنه، من جرّاء معاناته من داء الزمن، احتفظ بعادته في عكس الأحداث، ورواية الأشياء مبتدئاً من النهاية ليصعد نحو البداية، أو مازجاً مزجاً عشوائياً القصص الأكثر تنوّعاً. كان يعطي لأشقائه وشقيقاته أسماء مقلوبة: ودلابيراغ لـ: غاريبالدو، وتراوك لـ: كوارتو؛ أما أنيتا، فاحتفظت إلى الأبد بالاسم المقلوب الذي أعطاها إياه، لأنه كان جميلاً وسهلاً: أتينا.

كان القميص الأبيض الذي يرتديه يوم الأحد يضاعف من شحوب وجهه واللون المتوحّش لشعره، وكان يقطع سيراً على قدميه كل الكيلومترات التي تفصله عن الشاطئ، ليرى القوارب. وهناك تعرّف على إسبيريا، وقصّ عليها، من خلال شباك الصيد التي تصلحها فوق الرمال، حياته المحبطة وتصفّح مخاوفه بطبقاتها

(*) كُمَيت (صفة الفرس الأسمر المحمّر).

المتركزة. أحضرها إلى منزله في بداية شهر أيار، واحتفلوا به

كانت إسبيريا تنظر إلى الناس وكأنها مستمرة في النظر إ البحر من خلال الشباك.

«ألا تجد أن الحقول ينقصها اللون الأزرق؟».

16. للتسلية

كانت تأتي كل أحد. وكان ڤولتورنو يرافقها إلى منزلها وه يروي لها حكايات تنتهي بالبداية.

في اليوم الذي مرَّ فيه كوارتو من هنا وظهر على الباب دون ينزل عن حصانه الكُميت، شعر ڤولتورنو بخوفٍ جديدٍ، كالحز القديم الذي لايداوى.

«تعالي إسبيريا، سآخذك في جولة!».

كانت إسبيريا المائيّة بطبيعتها، تخشى الحيوانات الأرضية.

«ولكنها جولة للتسلية!».

أردفها خلفه، وبينما هما ذاهبان، مرّرت ذراعاً حول خصر كي لاتقع.

عندما عادا، محمرين وشعرهما مشعَّث، كانا مخطوبي ويُفتَرَض أن يتزوجا في شهر آذار. عرق ڤولتورنو كما لم يفع أبداً في حياته، تاركاً آلامه تنسكب على الرماد. وعاد من جدي يجيب على أسئلةٍ وجُهت له قبل أشهر، واستأذن والدته ليذهب إل منطقة بعيدة، دون أن يترك ركن النار. قال إنه كان يعرق آ غاريبالدو، وخوف إستيرينا ومستقبل كوارتو البطولي.

17. مثل أبيه

كانت رسالة كوارتو الأولى تلتهب حباً وخواءً.

كم كان كوارتو جميلاً وهو راحلٌ يرسل القبلات برؤوس أصابعه! أما ڤولتورنو فبدا أنه يريد الاختباء في الرّزمَة التي يحملو

على ظهره. وسرعان ما أصبحا جنديين صغيرين من الورق، هناك في البعيد على الطريق الكبير.

لقد نادتهما أفريقيا(8) عن طريق ساعي البريد، في صباح ممطر. ظلَّ غاريبالدو أميناً لاسمه.

قال مساءً على المائدة: «أنا، لن أذهب لأموت من أجل هؤلاء الأوغاد الذين يجلسون لا يعملون شيئاً».

صعد إلى غرفته، تمدَّد على السرير، ذخَّر بندقيته وصوَّبها نحو قدمه اليمنى. عندما قامت إستيرينا بعد عدة شهور بالتنظيف الكبير لعيد الفصح، وجدتْ أصبع قدم صغيرٍ فوق الخزانة، وقد تحوَّل إلى دودة متغضِّنة.

18. أفريقيا

مرَّت أشهر لاتنتهي. كانت إسبيريا تأتي يوم الأحد لقراءة رسائل كوارتو للعائلة:

عزيزتي إسبيريا،

غياب الشمس هنا يشبه الجراح، أفكِّر فيك ليلاً تفكيراً قوياً جداً حتى أكاد ألمسك. أفريقيا كبيرة جداً حتى أنها لتبدو مجرَّدة مثل هندسة متخيَّلة. هل تفكِّرين بي، أم أنتِ آخذة بنسياني؟ لاتحبِّيني كثيراً، يجب أن تكوني حذرة، لانعرف ما سيكون عليه الغد.

كوارتو

كانت إستيرينا تتأوَّه قائلة: «ولكن كيف يتكلَّم! لقد غيَّرته لي أفريقيا. لكنه، سيرجع لطبيعته الأولى عندما يعود، وسيستعيد سعادته في الحياة، وسيأخذكِ أيضاً للتنزُّه على الحصان».

19. بدوي

هرب ڤولتورنو مع البدو. هذا ما كتبه كوارتو في رسالة قصيرة وجافة قبل أن يصل الإعلان الرسمي عن فراره. كان قد التحق بقافلة

تتجه نحو جنوب ليبيا وتحمل الأسلحة والكحول. فقد رشده من أجل عربية، محجَّبة وشرسة، كانت تهدّئ مخاوفه بالفسق. هرب ليلاً، ولم يترك لأخيه إلا بطاقة وداع يطلب فيها أن ينسوه ويسامحوه.

قرأت إستيرينا الرسالة وفي حَلْقها غصّة وعند المساء وضعت شمعة على النافذة.

20. شِباك ضخمة من صُنْعِ الشرود

«لماذا لايكتب، لماذا لايرد؟»

عصفَتْ في عيني إسبيريا زوابع غضب قلقة. تمر أيام الآحاد الصامتة بانتظار أيام الآحاد الأخرى.

«سترين، سيكتب الأسبوع القادم» تقول إستيرينا.

كانت عينا إسبيريا، الطافحتان بالدموع، جامدتين مثل الرصاص. تحضر معها ربطات خيوطها ونسيج صِنّارتها، وتحيك بفعل الشرود شباكاً بِعَرْضِ اليد وبطول عشرات الأمتار، عديمة الفائدة تماماً، تنساها بعدئذٍ على طاولة المطبخ. كان غاريبالدو ينظر إليها نظرة مراهق، مكتشفاً في نفسه هوّاتٍ ليس لها قاع.

21. بغتةً، جميلةٌ جداً

لم تدرك إستيرينا جمال ابنتها الشديد إلا في اليوم الذي استنجدت فيه أتينا بها لطمثها الأول. كانت على السرير، ساقاها مفتوحتان، وتنظر مذعورة إلى وردة الدم التي تتسع على غطاء السرير. ضمّتها إستيرينا بين ذراعيها وطمأنتها وهي تقول إن الذي حدَّثتها عنه قد حدث الآن: لسوء الحظ، نصبح نساءً بلا إشعار. جرّدتها من ثيابها لتساعدها، واكتشفتها امرأة. كانت حتى اليوم السابق ماتزال فتاة صغيرة دميمة جداً، «فولتورية»، وصَموت، لها عينان غير محددتي اللّون، لم تتكشّفا زرقاوين حتى البلوغ. كانت تسير على رؤوس أصابع قدميها، تحبس كآبتها ولاتبوح

بمخاوفها، تماماً كما فعل ڤولتورنو. تحلم بأن تصبح راهبة لتخفي شعرها الشديد الحُمرة تحت القبعات البيضاء الكبيرة والواقية، ومن أجل عتمة الدير الرطبة، ولكي تمشي في ثوبها وكأنها تنزلق. كانت قد قالت لأمها:

«أريد أن أصبح راهبة».

أجابتها إستيرينا: «الفتيات في سن الزواج يبكين بعينٍ واحدة، والنساء المتزوجات بعينين اثنتين، والراهبات بأربع عيون».

أتينا: «ولكنني أفعل ذلك عن رغبة، وليس لأنني تعيسة».

وفي الصباح الذي وجدتها فيه إستيرينا في بقعة دم بلوغها، وكانت قلقة بسبب جمالها الفائق، اكتشفت عينيها اللتين أصبحتا زرقاوين في ليلة واحدة، وشعرها المتوهِّج، وهذه البشرة البيضاء كالبياض(*)، بدأت إستيرينا لاتعاكسها في رغبتها، وهي تقول: «ربما يكون من الأفضل أن تصبحي راهبة. أنت جميلة جداً، سيحدث لكِ مكروه».

لم تعتذ أتينا أبداً على جمالها غير المنتظر. كانت، من شدة ذعرها لتَبَدُّل هيئتها، ترتدي التنانير الطويلة جداً، وتخفي شعرها في قبعة قديمة، وتذر الرماد على وجهها لتغطي بياض بشرتها الناصع هاربة من الذين في مثل سنِّها. كانت تنتظر الصيف، الفصل الذي كان أوتورينو، ابن صاحب الفاتوريا، يترك فيه المدرسة الإكليريكية كي يأتي لتمضية العطلة. كانت جبّة المراهِق التي يرتديها تتلطّخ بالتراب منذ اليوم الأول في الريف، وكانت أتينا تبني معه المذابح الصغيرة المزيَّنة بالورود والقطع الزجاجية.

22. صليب من حديد

عندما عاد كوارتو في الصندوق المرصَّص، وقَّعت إستيرينا الإيصال للسلطات، وتجنَّبت جوقة البوّاقين المستعدة لعزف النشيد

(*) بياض (قماش قطني أو كتاني يستعمل للملابس الداخلية وسواها).

الوطني كما احترست جيداً من أن تصافح الأيدي متجاهلة كل تحية عسكرية. وضعت الصندوق على رأسها وحملته إلى منزلها كالفسيل. كان مغطىً بعلمٍ ثلاثي الألوان مدموغ باسم مرفأ وصولٍ بعيد: برنديزي. وقدْ عُلِّق على الصندوق خرْجٌ من الكتّان بلون الزنجار مع الصفيحة المعدنية النظامية ورسائل إسبيريا الغرامية، ووسط النسيج ثلاثي الألوان عُلِّق صليب الحرب، الذي منح من أجل العمل المنجز.

قرأت إستيرينا التنويه، مساءً في المنزل، أمام غاريبالدو وأتينا وإسبيريا. كان كوارتو قد ذهب طوعاً في مهمة لا عودة منها وقد علّقوا صليب الحرب بدبّوس على صدره حتى قبل أن يذهب، تقريباً كأنه يُمنح له بعد وفاته.

في الليل نهضت إستيرينا، ونزلت إلى المطبخ وكسرت ختم الشمع الأحمر، ولم تشعر بأي تردُّد أمام بقايا ابنها، على الرغم من ضوء الشمعة الخافت والانفعال. أيقظت غاريبالدو وقادته إلى أسفل.

قالت: إنه ڤولتورنو. هذا المخبول «ڤولتورنو».

وبالطبع، لم يقولا هذا لإسبيريا أبداً. أعطياها الصليب الحديدي الذي أخذت تصدأ بصحبته، بينما أضحت زياراتها تقصر أكثر فأكثر.

23. مَثِلٌ

كانت لغاريبالدو الغريزة الفطرية والحواس التي تصنع الصيّاد المميز. كان يشمشم الهواء ليتعرّف على المسار الذي عبرته الخنازير البريّة، ودنو خفير الصيد، كان يخترق الظلام بعينيه الثاقبتين، وينام في الأدغال كما ينام في سريره. وكانت إستيرينا تخشى الماضي ـ المستقبل.

كان غاريبالدو يقول: «أنا لست مثل والدي، قدمي تعمل».

كانت هذه القدم القصيرة والضامرة خفيفة الحركة إلى أقصى حد فعلاً، مثل يدٍ ثالثة تقريباً. إنها له كجرس إنذار. يكفي وجود خفير صيد على بعد مئة متر لينفجر الألم في القدم، مثلما حدث عندما أطلق غاريبالدو رصاصة على قدمه. كان يعلم أنهم لن يلقوا القبض عليه إطلاقاً، لأن ساقه ستنبِّهه في الوقت المناسب. وهكذا فإنه عندما نزل إلى مستنقع الدغل، ذات ليلة مقمرة، ليفاجئ خنزيراً برِّياً جاء ليشرب، أنذرته قدمه بأن خفير الصيد قد كَمَن ليفاجئه، بالطريقة نفسها التي قتل فيها والده بالرصاص. لبد خلف جذع شجرة على حافة ممر ضيِّق، وسَبَطانة البندقية مستندة إلى ذراعه حتى خرج الحارس بلا حماية، فضولياً وحذراً، واجتاز الممر المليء بالعشب ليمد عنقه نحو جذع شجرة الصنوبر. في هذه اللحظة سقطت الذراعان المختفيتان، المتصلِّبتان، بعنفٍ. صَدَر صوت أصم، مثل «بلوف» في الماء، ووقع خفير الصيد على الأرض مثل دمية متحرِّكة قُطِعَت حبالها.

24. حياة القديسة أورسولا

كان أوتورينو صبياً بديناً، دون أن يكون قوياً، بذلك الامتلاء الهادئ والشاحب، المميَّز لطلاب المدارس الإكليريكية، يداه خجولتان وغير ماهرتين، معتادتان على حبَّات المسبحة اعتيادهما على العادة السرِّية. كان يحلم بأن يصبح نائب كاهن، ويهوى بشدة التزيينات والمواكب؛ ويتقن صناعة وسائد وسجادات صغيرة من الورود، مطرَّزةً بمدائح عشبية موجَّهة للقديسة أورسولا، التي كان، هذا الصيف، قد اختار حياتها كموضوع للتأمُّل، قبل الذهاب في عطلة إلى بورغو. لكن ذلك الصيف كان أول صيف لم يتمكَّن فيه من التركيز على حياة القدِّيسين بسبب الحرارة المرتفعة جداً، كما حدث وقال له ذلك، بطيبة قلب، مدير الدروس عندما مرَّ لزيارته، متوقِّفاً للعشاء في الفاتوريا، خلال جولته السنوية لتشجيع الطلاب الإكليريكيين الذين يجابهون إغراءات العالم.

في الواقع، كان الطقس حاراً جداً. وكانت الأكواخ تحترق في الأرياف، والمقبرة، التي تبدو من الفاتوريا قريبة جداً، كانت تضطرم ليلاً بأطياف وهجٍ مستنقعي، يعتقد أوتورينو أنها نفوس معذَّبة تُكوى على نار خفيفة وهي تتعرض للقصاص. راح، وهو يعرق في جبّته، التي يرتديها عندما تهاجمه الشهوات، بناءً على نصائح مدير دروسه، يذرع الغرفة بالقرب من نافذته جيئةً وذهاباً بخطىً ضجرة متفكِّراً في القديسة أورسولا. كان لأوتورينو نظرة مأساوية في الحياة، يبكي بطيبة خاطر عندما يتخيَّل نفسه شهيداً مسيحياً تلتهمه الحيوانات المتوحّشة في سيرك روماني. وكان سيزار قد قال له: «إذا ما أنكرت إيمانك، فستنجو من التهلكة». أجابه أوتورينو: «إطلاقاً، حياتي الحقيقية هي الموت!».

لكن حلماً دنيئاً ورتيباً بدأ هذا الصيف يرهقه ويتركه منهكاً وذليلاً. يخاطبه سيزار في مدرَّج مقفر، ويصرخ من أعلى المنصَّة الإمبراطورية ويبدو كأنه قزم ممسوس. كان صوته الذي يرن بصدىً متكرِّر بطريقة لامعقولة يشبه شبهاً عجيباً صوت مدير الدروس النشاز: «إذا ما أنكرت إيمانك فستنجو من التهلكة». كان أوتورينو يود أن يجيب بجملةٍ مليئة بالفخر، لكن ضعفاً لزجاً يرخي قبضتيه وركبتيه. ويرفض صوته إطاعته، وعندما يتوصَّل إلى لفظ جملة واضحة، كان يصرخ باشمئزاز عميق: «أنا أرتد عن الدين، أنا أرتد عن الدين!».

في هذه اللحظة، ينفجر سيزار ضاحكاً. لم يكن «نيرون»، بل مديرَ دروسه ذاتَهُ. ويبدأ المدرَّج بالامتلاء بالحشد: وجوه ووجوه، تحدِّق به باحتقار. تنفتح شبكة حديدية في نهاية الحلبة، ويتقدَّم نحوه شدق فاغر لحيوانٍ مفترس. كان أوتورينو يخفي وجهه بين يديه ويطلب من القدِّيسة أورسولا أن تغفر له هذا القدر الكبير من الجبن. ويستيقظ مذعوراً.

كشف عن مكنونات قلبه لأتينا، ونظَّما موكباً من اثنين حتى النهر. أوتورينو، في المقدمة، يحمل مدفأة صغيرة من النحاس

تحوّلت إلى مبخرة، تحترق فيها قطعتان من البخور أحضرهما من المدرسة الإكليريكية. وأتينا تتبعه وهي تردد الصلوات(*):

«المواسية الحزانى.

ـ صَلِّ من أجلنا.

ـ صَلِّ للمذنبين.

ـ صَلِّ من أجلنا.

خاطب أوتورينو أتينا، مقاطعاً الصلوات: «لا أستطيع يا أتينا التركيز على القديسة أورسولا البتة. هذه الليلة أيضاً أمضيت ساعتين في التأمُّل دون نتيجة».

لم تجب أتينا.

«هذا لأنه، عندما أفكِّر بالقدِّيسة أورسولا، أراكِ أنتِ: للقديسة أورسولا عيناكِ وشعرك».

بعد الظهر استحمَّا معاً في النهر وكانت الحرارة رهيبة. خلع أوتورينو جبّته ومدَّدها على الأسل(**) كي يجفِّفها، لأنها تلطَّخت بالوحل على الحافة. وابتداءً من تلك اللحظة مرَّ الصيف بسرعة يوماً بعد يوم. فاجأت العاصفة الأولى أوتورينو مبكِّرة، رغم كونهما في نهاية شهر أيلول. قالت له أتينا إنها حامل، واختفت القديسة أورسولا تماماً من تأملاته.

25. *باريس، السماوات الرمادية*

كتبت إستيرينا: «لقد نجا، إنه قوي».

تملّك غاريبالدو غضب شديد بعد الوفاة بسبب فكرة هربه غير الضرورية والمتعجلة: المنزل في حالة ذعر ليلاً، البقجة التي مُلِئتْ

(*) جاءت باللاتينية.
(**) أسَل (جنس نباتات عشبية تُستعمل أغصانها لصنع السلال).

بلا ترتيب، الساحة الخالية التي طاف حولها ملامساً الجدران، الطريق الكبير المعتم ساعة الفجر.

«مضى الآن عام، لا أحد يستطيع شيئاً ضدك، ربما لم يتعرّف عليك».

لكن غاريبالدو أجاب:

«من الأفضل أن يكون المرء حذراً. إنني هنا في حال جيدة، آكل مرتين في اليوم. لا، من الأفضل أن أترك الوقت يمر قليلاً. لكن السماء هنا رمادية، لا كما عندنا. الشمس، لم أعد أعرف كيف هي، لقد تَقاعَدَتْ في شهر تشرينٍ الأول بلِّغي ذكراي الطيبة لإسبيريا، وقولي لها إنني سأذهب لأكلِّمها عندما أعود».

لكن إستيرينا فضّلت الذهاب لتكلِّم زلميرا، لأن شكّاً راودها.

«أليس مصاباً بمرض ڤولتورنو نفسه؟».

أجابت زلميرا: «من يدري. إنه بعيد جداً، لانستطيع أن نقول شيئاً».

كانت الوحدة تستنفد قوى إستيرينا. تذهب يوم الأحد لتجد الصحبة مع بلينيو وڤولتورنو اللذين وضعتهما في قبرين متجاورين، بمدخراتها الأخيرة. كانت تحمل رسائل غاريبالدو وتقرؤها بصوتٍ خافت حتى اللحظة التي يأتي فيها الحارس ليقول لها بأنه ذاهب، وأنها إذا أرادت النوم هنا فهذا أمر عائد لها. كانت تجد إسبيريا في منزلها، وقد جاءت لزيارتها حاملة الهدايا البحرية. وهذه لم تعد تريد صنع الشباك: تركت شباكها على حُصُر القصب، وفيها شقوق ضخمة تُوَسّعُها العصافير يوماً بعد يوم وهي تأتي لتلتقط الحشرات التي عشّشت بين الخيوط والطحالب الجافة. صارت تحب النزول إلى البحر محبوسة داخل فوقعة الذكريات، وأن تعيش بين الصخور، في العتمة المائية. تحاول إستيرينا أن تقول بأنها ماتزال شابة، وأن من الجنون الركض بيأس وراء الماضي، لكنها كانت تقوم بحركات في الهواء، وتنقر الطاولة نقرات خفيفة جافة،

وكأنها تريد القول بأن أمامها عملاً صعباً عليها أن تنجزه. وأنها تتذكّر لهذا السبب فقط. في اليوم الذي تحل فيه عقدة الماضي ستفكّر عندئذٍ بالحاضر. وهكذا كانت حالها في كل أيام الآحاد، في كل السنوات، بينما راح غاريبالدو يتحدّث عنها في كل رسالة من رسائله دون أن يقرِّر العودة أبداً.

كتبت إستيرينا أخيراً: «لقد أصبحت شقيقتكَ راهبة لأنها كانت تعيسة وليس عن رغبة؛ لقد أخفيت هذا عنك دائماً شفقةً مني، لكنني يجب أن أقوله لك الآن نظراً لأنك لم تقرِّر العودة».

26. الأقل قبحاً من ملوك المجوس الثلاثة

استمع والده إلى كل شيء دون أن ينطق بكلمة، متحصِّناً خلف الأوراق المكدَّسة على مكتبه، ثم وقف واتجه نحوه غير مبالٍ، وضربه بظاهر يده ضربةً جعلته يترنَّح.

قال أوتورينو: «لماذا تضربني؟ ليس لك الحق».

أمسك به والده من رقبته وصفعه صفعةً أخرى. ثم خرج إلى الباحة وربط العربة. رفعه إلى أعلى عنوةً تقريباً، معملاً السوط كي يهيِّج الحصان.

تمتم أوتورينو وهو يمسح الدم الذي يسيل من أنفه: «إلى أين تأخذني؟

ـ سوف تذهب إلى دون ميلڤيو للاعتراف، وبعد ذلك سترحل غداً صباحاً. هل قلت هذا إلى أحد؟».

تمتم أوتورينو: «كلا، لايعلم هذا سوانا».

قال والده: «إذاً، مايزال هناك متسع من الوقت».

لم يكن دون ميلڤيو قد نام بعد. كان يقوم بعملٍ تافه في مقرّه ليصنع فخاً مركَّباً للفئران، متَّبعاً تعليمات كتاب موجز عن فن الهيدروليك الذي درس شيئاً منه قبل أن يستميله نداء الدين. سمع

عربة الخيل تقف تحت النافذة فارتدى مسرعاً ثيابه من جديد، ففي هذه الساعة لابد أن الأمر يتعلّق بالمسحَة الأخيرة. أخذ صندوق المُناولة الأخيرة، لبس البَطْرَشيل(*) وفتح الباب. كانت العربة، التي يظهر بداخلها خيال ضخم، قد وقفت تحت الجرس تماماً. اتجه نحوه منكبان يهزهما النحيب. قال دون ميلڤيو: «هذا أنتَ!».

أدخله دون ميلڤيو إلى المدخل، وهي غرفة رطبة سقفها منخفض، كانت تُستخدَمُ كهفاً فيما مضى.

قال دون ميلڤيو: «في هذه الساعة. ألم تكن تستطيع انتظار الغد؟».

أشار أوتورينو إشارة نعم، ثم كلا، وذهب ليجلس على مقعد حيث وضعت مزهريتان لا ورود فيهما. دمدم دون ميلڤيو: «في هذه القرية لايعترف أحد أبداً، وعندما يقرِّر شخص ذلك يأتي في منتصف الليل».

كان أوتورينو يمسح أنفه بمنديله.

قال دفعة واحدة: «لقد فكّرت بأنيتا أكثر من القدّيسة أورسولا».

قال دون ميلڤيو الذي يعرف ضعف الشهوات:

«إن ذوقك حسن».

أعادت هذه الطمأنة، غير المنتظرة، الشجاعة إلى أوتورينو. همس وهو يخنق شهقة: «ضربني والدي.

- إنه كافر، لايعرف الرحمة».

فتمتم أوتورينو: «أنيتا حامل منذ ثلاثة أشهر».

وقف دون ميلڤيو، وتملَّكته، تحت وقع التأثر، نوبة من السُّعال. حاول عدم الاستسلام للغضب أو التسامح الكبير جداً، وهما نقطتا ضعفه الرئيسيتان.

(*) بَطْرَشيل (قطعة من القماش منقوشة ومقصَّبة يضعها الكاهن أثناء الخدمة الدينية).

قال أوتورينو بنبرة قلقة: «ماذا يجب أن أفعل؟»

فكّر دون ميلڤيو بالقديس جيروم الذي أذلّ جسده بأكله ـجراد، وسَحَبَهُ رقّاص الساعة من أفكاره، أكثر مما فَعَلَ توسُّل ـوتورينو: راح يدق اثنتي عشرة دقّة.

قال بهدوء: «إذا كنتما متّفقين، فمن الجيد أن أزوّجكما، اذهب ـلآن إلى النوم وفكّر بذلك».

وقف أوتورينو، الذي تحرّر من ثقلٍ كبير، ورسم إشارة الصليب ـتوجّه نحو عربة الخيل بخطوة واثقة.

عند الفجر شنق نفسه على عارضة في غرفته، بينما كان والده ـربط العربة ليعيده إلى المدرسة الإكليريكية. في عجلته لشنق نفسه ـم يترك أدنى كلمة لأنيتا. على أية حال لم يكن يعرف ماذا يقول لها. ـكن وجهها كان آخر صورة رآها في العالم أمام عينيه، بينما كان ـحاول يائساً التضرّع إلى القديسة أورسولا.

وضعت أنيتا طفلاً محتقناً وبديناً، مع أنه وُلِدَ بعد سبعة أشهر، ـلم تكن هناك أية إمكانية لرؤيته. أعطته إستيرينا اسم ميلشيور لأنه ـلد في 6 كانون الثاني، ولأنه الإسم الذي بدا لها، من بين أسماء ـلوك المجوس الثلاثة، الأقل قبحاً. كانت قد بدأت تتعلّق به عندما ـلبه مدير المزرعة. دخلت أنيتا الدير لتحبس نفسها فيه إلى الأبد، ـفعلاً لم يرها أحد بعد ذلك. اختفت في عتمة جدرانه رافضةً ـزيارات والرد على أية رسالة، محاولةً نسيان كل شيء وكل الناس. ـع هذا، لم تتخلَّ عن الاسم الذي أعطاها إياه ڤولتورنو، كما علمت ـستيرينا بذلك عن طريق رئيسة الدير عندما غامرت بالزيارة الأولى.

«تُفَضِّل الأخت أتينا عدم رؤيتكِ في الوقت الراهن».

فضّلت ألّا ترى أحداً خمسة وستين عاماً، حتى ماتت بعد أن ـقّفها الزمن، دون أن تعرف أبداً بوقوع حربين، في المساء نفسه

الذي دخل فيه الأمريكيون بصخب إلى بورغو، واستقبلتهم قرية بلا نوافذ.

27. عشر سنوات من أجل ساعة

لم يتكلّم غاريبالدو في رسائله عن كل ما سيتبع من الأحداث لقد وَجد قبل أن يموت، وسيلةً لكي يروي بعض الأشياء النادرة فقط، لابنه.

سانت مالو، بسقفها الضبابي، الذي تثقبه المراكب الشراعية بعوارضها؛ المعدنُ الشتوي للأطلنطي؛ «كارمين»، الصّقلّي الذي سيطر عليه الندم في منتصف الطريق، ورمى بنفسه إلى الماء ليعود إلى الوراء؛ الحشد القاتم للمهاجرين؛ مرفأ نيويورك الذي أحاطهم بممراته المائية. وهذه الأمة الهائلة حيث الجميع غرباء. سأله جالب الزبائن الذي كان مايزال يتحدّث بلهجة مدينة نابولي، دون أن ينتظر موافقته: «خطوط سكك حديد الغرب». وهكذا بدأت الرحلة في محيط من العشب الذي تمخره المراكب الشراعية المحمَرّة المتحجّرة. ليالٍ من السفر على قطار يبصق الحبر كما الحبّار، مع رجال بدوا سوداً من الدخان، لكنهم كانوا كذلك بطبيعتهم، مع متشرّدين شقر لاماضي لهم، ومدن هاربة من الخشب، حدودُها العدم. حتى اللحظة التي برزت فيها تلك الوَرْشة المتنقّلة، التي تبني السكة الحديدية، فيلْحَق بها.

قصّ غاريبالدو كل ذلك لابنه، لكنه أبقى أشياء عديدة طي الكتمان لضيق الوقت. لم يتكلّم عن السير الطويل وتجمُّع المضربين، والهجوم على القطار المحمّل برجال الشرطة، وعن ليزا ذات الضفائر الطويلة التي عاش معها ثلاث سنوات دون أن يفهم أبداً أية لغة كانت تتحدّث، متواصِلَيْن بالحركات والإشارات والرسوم الصغيرة، وعن السهرات اللامتناهية، لأنهما كانا يتناولان العشاء

عند الغروب، طوال هذه السنوات الثلاث الهادئة، الوحيدة من بين كل تلك التي قضاها بعيداً، والتي عمل فيها مزارعاً: مزرعة مع بقرتين وعشر عنزات، وبيت خشبي يواجه الأفق. وكانت ليزا تمضي الساعات في تجميع قطع القماش الصغيرة المتفرّقة لتصنع منها كل أنواع الأشياء (أغطية، ستائر، تفاريج(*) وشراشف)، وتنظر بطرف عينها في رغبة إلى كومة الرسائل القديمة، آخر واحدة وصلت من بورغو، طالبة بعينيها أن يقرأها غاريبالدو لها. ويتكرر هذا كل مساء، مع الرسالة نفسها، حتى تصل واحدة أخرى. استقبلته ليزا على عتبة الباب وهي تضحك:

«أنا بصحة جيدة وآمل أن تكون أنتَ كذلك».

أحسّ غاريبالدو بطعنةٍ في قلبه وشعر بأنه يشحب.

«لقد تعلّمتِ الإيطالية!».

ولكن ليزا تابعت:

«ترسل لكَ الأم إسبيريا سلامها أيضاً، وهذا الزوج من النعال من خيوط حاكتْهُ بالصّنارة المعقوفة، وهو عمليٌ جداً للذين تتعرق أقدامهم مثلك».

عندئذٍ أدرك غاريبالدو أنها كانت نهاية الرسالة التي اضطر لقراءتها أكثر من ستين ليلة متتالية، بسبب خطأ في توصيل البريد ورسالةٍ نسيَتْها عابرةُ المحيط(**).

عندما كان غاريبالدو يرد على رسالة، كان يكتب بصوتٍ عالٍ ليشرك ليزا. وكان ينتهي دائماً بالعبارة ذاتها، التي أصبحت ليزا تعرفها عن ظهر قلب، والتي كانت تريد أن تمليها عليه برضىً طفولي بلسانها الذي يرفض لفظ حرف «التاء»:

(*) تِفْراج (جمعها تفاريج، وهي خروق في الجدران أو النوافذ لإدخال النور والهواء).
(**) عابرة المحيط (باخرة تقوم بالملاحة بين العالمين القديم والجديد).

«لنترك قليلاً من الوقت يمر، فما زال الأمر حديث العهد جداً، إذا عدتُ يمكن أن يوقفوني، من يعرف إذا كان هذا الحيوان قد تعرّف عليّ، ذَكِّري إسبيريا بذكراي الطيبة، وقولي لها أنني عندما سأعود، سأذهب لأكلّمها».

وهكذا دواليك، حتى اليوم الذي أجابت فيه إستيرينا: «لم يعد الأمرُ حديثَ العهد، حتى أن رائحته أصبحت نتنةً، ومات الحيوان بذبحةٍ قلبية. ربما كان الوقت هناك في أمريكا، باللغة التي تتكلّمها، مختلفاً. لكن هنا، مضت تسع سنوات، وندخل في العاشرة. إسبيريا تتغذّى بالسرطان المائي، وأنا قصرت كثيراً، حتى أنني لم أعد أرى نفسي أبداً، منذ الصيف الماضي، لم أعد أصل إلى مستوى المرآة. بهذا المعدّل، لم يبقَ لي إلا عدة سنتيمترات من الحياة، وإذا ما تباطأتَ أيضاً، سأكون قد تبخّرتُ تماماً عندما ستعود».

عندئذٍ قال غاريبالدو وداعاً لليزا، أخذ مدّخراته وصعد إلى القطار. بعد أربعة عشر يوماً دخل إلى أفضل صانع ساعات في بوسطن، واشترى أفضل ساعة في كل المخزن، وثبّتها على جيب صُدْرَته بسلسلة من النحاس، ووعد نفسه بأن يحتفظ بها باقي حياته. ثم جلس في مقهى وأجرى حساباته، وكتب لأمه أنه سيصل بعد سبعمئة وثلاثين ساعة. وبالطبع وصل في الوقت ذاته الذي وصلت فيه الرسالة التي سافرت على متن الباخرة نفسها.

28. من أجل حبٍّ قديم

ما أن وصل غاريبالدو حتى ذهب ليفك عقدة ماضي إسبيريا. فعل ذلك كما أملته عليه طبيعته، رغم الساعة الجديدة تماماً: ذهب ماشياً باندفاعِ مُراهقةٍ جديدة على نحو غير لائق، ليصل إلى المنزل البحري، على الطريق الذي كان يقطعه كوارتو وڤولتورنو كل أحد. كان شهر أيار، وكانت نباتات الوزّال(*) تصبغ الكثبان باللون

(*) وزّال (جنبة صفراء الزهر من فصيلة القرنيات الفراشية).

الأصفر. وتحولت الشباك المتروكة على حصرها إلى نباتات لأنها اعتادت الأرض؛ راحت تنمو فيها جُرَيْسَات زهرية اللون، لحميّة، مثل السُرر تقريباً. دخل دون أن يقرع الباب فوجدها تصدأ في زاويةٍ بصحبة صليب الحرب المعلّق بمسمار على الحائط. عندما رأته إسبيريا على العتبة فهمت لماذا جاء.

قال غاريبالدو وهو ينظر إلى الأرض كي يتحاشى نظرتها التي كانت تتفحّصه: «لقد أحببتكِ دائماً».

تمتمت إسبيريا: «أنا مسنّة قياساً بك».

قال غاريبالدو: «إنه الهواء البحري الذي يجعلك تصدئين».

اغتصبها بهدوء وسط الشباك والحبال المتعفّنة. كانت السُرر النباتية تهدِّد بالاستيلاء على المنزل وهي تدخل من النافذة..

قال غاريبالدو: «هل هذا ممكن؟».

أجابت إسبيريا وهي تتنهّد: «لم أقوَ أبداً على أن أفعل هذا مع شقيقك».

ضمّها غاريبالدو بين ذراعيه ولم يقل شيئاً.

تأوّهت إسبيريا عندما تحرّرت من ضمّته، وعيناها تلمعان لأن العمل الصعب قد تمّ: «هذا ما كان إذن. لقد أخطأتُ تماماً. كان ڤولتورنو هو الذي أحبَبْتُهُ».

عندئذٍ علّقت صليب الحرب على رقبتها، ومن غير أن يناديها خرجت إلى الدرب الضيّق بثقة. أغلقت الباب ورمت المفتاح إلى البحر.

قال غاريبالدو وهو يذهب: «سنتزوّج في الحال».

تزوّجا بعد أسبوع في صمت مبكّر ورتيب، ممزوج بتمتمات الموافقة لإستيرينا التي لم يكن قد بقي لها إلا الصوت، والتي أرادت إبقاء سرِّها إلى النهاية، حتى في معركتها مع الموت. في المساء

الذي دخلت فيه النزع نادت أولادها إلى سريرها كي تودّعهم. كانت تتنفّس بصعوبة، وكان صوتها ضعيفاً، لكنه صافٍ.

«أريد أن أدفن بجانب بلينيو وكوارتو».

صحّحت إسبيريا: و«ڤولتورنو». وابتسمت بطريقة مسهّلة ومطمئنة تعني: لاتقلقي، أعرف الآن كل شيء.

سألها غاريبالدو بنظره.

قالت إسبيريا: «كوارتو هو الذي فرّ مع البدو، لايمكن أن يكون الأمر غير ذلك. لقد علمت هذا دائماً، لكنني لم أفهمه أبداً».

لقد فكّرت تفكيراً متواصلاً بڤولتورنو حتى لكأنها أنجبت منه طفلاً في شهر شباط، بعد زمن طويل من وفاته. كان له وجهه الأبيض ذاته، وشعره الذي بلون اللهب والعينان الشاحبتان البعيدتان المليئتان بالكلمات السّرية. ثم أصبحت عاقراً مباشرة بعد ذلك. كبرت بين ليلة وضحاها، دون مآسٍ ولاهَبَوات، وضمرت، وحبست نفسها في قوقعة من السواد. سمّى غاريبالدو ابنه ڤولتورنو، ولم تعرف إسبيريا أبداً إذا كان ذلك بسبب حبٍ أخوي أم نكاية، أم الإثنين معاً. لكنها لم تجرؤ إطلاقاً على استخدام هذا الاسم الأول، ودعت ابنها بـ «أنتَ» كبيرة، مراوغة وجبانة. عندما مات غاريبالدو وقد تصدّع رأسه مثل بطيخة صفراء، بعصي الحرس الملكي، أخذ ڤولتورنو اسم غاريبالدو، وتوقّف الإسم ـ الضمير نهائياً.

29. *آلة المساواة الهيدروليكية*

إضافة إلى ذلك كان شتاءً دون رحمة، ونار القصب تشتعل لكنها تدفّئ قليلاً وتدوم أقل أيضاً، وسعر الخشب مرتفع جداً. كان ثلج كثيف ومتماسك إلى أقصى درجة يحاصر بورغو منذ أسبوع. وبقي برج الأجراس صامتاً. فخادم الكنيسة كان يهرب من الأجراس لأن الحبال صارت سكاكين حقيقية، وكان دون ميلڤيو، بسبب البرد،

قد كفَّ تماماً عن رفع القربان المقدَّس أمام المقاعد الخالية، ساخراً دون شك، من ذلك كثيراً. وكان بوسعه أيضاً أن يتوقف عن القيام بالمسحات الثلاث الأخيرة التي تُطلب بتكتُّم بسبب التطيُّر، لكن ذلك شيء لايمكنه رفضه. كان يمضي ساعات وقد وضع مدفأة صغيرة تحت ثوبه، وألصقَ وجهه بزجاج مقرِّه، ماسحاً البخار بظهر كمِّه ليصنع لنفسه دائرة رؤية صغيرة. كان ينظر إلى الحاجَّات القليلات اللواتي يمررن ويفكِّر في الهيدروليك وفي القديس جيروم الذي أكل الجراد بملء إرادته على الأقل. لقد فهم دون ميلڤيو أن كفر الأغنياء له مدلول آخر غير مدلول كفر الفقراء: هو ترف للأوائل ويأس للآخرين. لهذا راح يمضي وقته في تصميم آلة هيدروليكية المساواة تتألف من مضخَّة مركزية موجودة وسط مخزن الغلال الرئيسي الذي تتجمَّع فيه كل إيداعات الفاتوريا. هذه المضخَّة مزوَّدة بجامعٍ يعيد توزيع الحب، الممتص من فوهاته، في مضخَّات أخرى، تخرجُ من فتحات مخزن الغلال، وتذهب نحو بورغو، مثل أرجل عنكبوت عملاق. كان دون ميلڤيو يستطيع أن يميِّز تماماً، من نوافذ مقرِّه، أنابيب آلته التي تنزل نحو بورغو، وكان باستطاعته حتى أن يسمع صوت الحبّ، الشبيه بقرقعة حبّات البَرَد على القرميد، الذي يطير مثل زوبعة على جدران أنابيب المعدن.

كان دون ميلڤيو يقول لخادم الكنيسة، بلهجة معاتبة مصطنعة: «لقد تأخَّرت اليوم عشر دقائق».

كان الناس، عند سماعهم صوت أول جرس، يخرجون من منازلهم مع أكياسهم، ويركض دون ميلڤيو إلى النوافذ الجانبية ليشمل بالنظر كل زوايا التوزيع. كان الأنبوب الأول يصب على الساحة حيث يظهر من الآن رَتْلٌ ضخم نسبياً، لكن أربعة أنابيب أخرى كانت تعمل في الجهات الأصلية للقرية لتسرِّع التوزيع. يوجد الآن في رأس دون ميلڤيو تعديل ماهر: من المجمع المركزي ستنطلق مجموعة من الأنابيب الكبيرة مثل المزاريب، وستدخل

مباشرة من نوافذ المنازل. لكن كفى، حسناً، كان تحسيناً مكلفاً قليلاً، يتطلَّب حسابات معقَّدة جداً: بالإمكان الاكتفاء بالآلة البدائية لهذا الشتاء. راح دون ميلڤيو يضغط جبينه على الزجاج المثلَّج، وهو ينظر إلى الكلاب الضالّة التي يطارد بعضها بعضاً، في حوش الكنيسة، وهي تحاول دفع الباب بخطومها.

شاهد دون ميلڤيو، بعد الظهر من يوم 23 كانون الثاني، القصير جداً، في اللحظة التي كان ينتقل فيها من رؤية آلته إلى رؤية الكلاب الضالَّة، معطفَ غاريبالدو يمر في الشارع، ولم يستطع مقاومة الإغراء: فتح النافذة على وسعها، مع خطر أن يصاب بذات الرئة، وأرسل دعوة حاسمة تكثَّفت على الفور في الهواء: «غاريبالدو، اصعد إلى هنا لحظة!».

وبما أن غاريبالدو، المنذهل والحذر، لم يقرِّر الصعود، تخلَّى عن كل رصانة للإحترام الكنسي ونزل بنفسه، بالخف، والمدفأة الصغيرة بيده، حتى الثلج المتجمِّع على العتبة.

قال دفعة واحدة:

«ماذا تنتظر لتأخذ قمح مخزن غلال البلدية، هل تريدون أن تموتوا من الجوع، أنتم أيها المجانين؟».

وباعتبار أنَّ غاريبالدو كان أكثر ذهولاً من أي وقت مضى، وهو ينظر إليه فاغِرَ الفم دون أن يجد ما يجيب به، فقد أنهى دون ميلڤيو كلامه وهو يعود ليختبئ خلف الباب لأن البرد كان مايزال أقوى من اعتقاده الراسخ، قائلاً:

«أنتم جميعاً أولاد اللَّه، إذاً أنتم جميعاً متساوون، والقمح ملك للجميع».

بقي غاريبالدو جامداً بضع دقائق، تحت المزراب تماماً، دون أن يشعر حتى بخيط الماء المثلَّج الرفيع الذي كان يسيل ببطء على رقبته؛ ثم رفع ياقة معطفه وسار بخطوة رشيقة على طول الشوارع

الصغيرة للآبار، باتجاه مخزن الغلال. عندما عاد إلى منزله، في الليل المظلم، أعلن لإسبيريا التي كانت تنتظره بقلق:

«الحل الوحيد هو الإغارة على مخزن الغلال البلدية».

اعترضت إسبيريا قائلة: «لقد وضعوا عليه حرّاساً.

ـ ليسوا سوى أربعة، وهو يطفح بالقمح. لقد رأيته هذا المساء. دخلتُ خلسة وسرقت منه قليلاً لأريه للقرية. إنه قمح الفاتوريا، انظري كم هو صافٍ».

سحب من جيبه حفنةً كبيرة منه. كان محشواً بالقمح الذي صار يتساقط عند كل حركة من خلال ساقي بنطاله.

«سأذهب إلى القرية لأريه للجميع. إنهم يريدون إماتتنا جوعاً، ونحن سنأخذ القمح».

أمضى الليل وهو يوزّع الحبوب، من منزلٍ إلى آخر. كان يدخل إلى بيوت الناس، يفتح ساقيه، يحرّك بنطاله، فينساب القمح.

كان يقول: «مخزن غلال البلدية مليء حتى حافته، أنتم تتحدّثون عن مجاعة! ولانستطيع شراء الخبز لأنه يكلّف غالياً جداً. ونحن جالسون هنا مثل الحمقى. ليلة سعيدة للجميع!».

30. رسمياً، الساعة السابعة مساءً

في الصباح كان في الساحة حشد صموت وكامد. أحضر الناس أكياساً فارغة ورفوشاً، وأيضاً مذاري لاستخدام آخر، حيث الغضب، خلال الليل، قد خمَّر حبوب غاريبالدو. يقال إن أول من تبع غاريبالدو كان والد غيدو البدين، تُرغمه ظروفٌ قاهرة، لأن ابنه كان يبتلع كيلو خبز يومياً، وإذا لم يحصل عليه يُجَنّ ويكسر كل شيء في المنزل. بعدئذٍ تبعه سيل الرجال والنساء وهم يصيحون «ليسقط الملك!» فأطاحوا بالأبواب والحرّاس الأربعة المرتاعين، وفاجأوا الجميع بظهورهم في مخزن الغلال. أخذوا مؤونتهم للشتاء بأكمله.

راح غاريبالدو، وهو واقف عند أعلى برميل، يقود عملية نهب المخزن، حريصاً على أن يحصل الجميع على نصيبٍ متساوٍ. عندما وصل فصيل النجدة على الأحصنة، مسلّحاً بالسيوف والعصي، كان يعطي أوامره لآخر المهاجمين: أُخِذوا غدراً، ولم يسمعوا ضربات الجرس (الأولى منذ عشرة أيام)، حيث كان دون ميلڤيو، الذي شاهد المعركة من خلال نافذته، يحاول تنبيههم بوساطتها.

مات غاريبالدو رسمياً في 24 كانون الثاني عام 1899 ، في الساعة السابعة مساءً، مع أنه وجد الوقت ليتحدَّث مع ابنه حتى صباح اليوم التالي.

تنهَّد الدكتور كاميسي، الذي لم يساعد إلا في إحصاء عدد الموتى، وهو يقول: «توراتي، توراتي، كم من المصائب تسبَّبتَ بها للايطاليين!»(ه). وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يستطع فيها إعطاءهم وصفة الكالوميل(*).

(*) كالوميل (درور يُتَّخذ مسهلاً).

الحقبة الثانية

1. عطش ميلشيور

كان ميلشيور رخواً، لكنه يعتمد على وزنه وعلى المقاومة السلبية. يهاجم رفاقه الذين يكرههم بكآبةٍ عميقة، مزوَّداً بهذين السلاحين، ولأنه يشعر بأنه تعيس. دخل ذات يومٍ في نوبة من اليأس إلى ظل الكنيسة الخفيف. كان دون ميلڤيو يلبد في كرسي الاعتراف، حيث يمضي فترات بعد الظهر في أملٍ عديم الجدوى بأن يأتي أحد للاعتراف. مع الوقت أصبح ذلك عادةً ثابتة لديه، لأنه في الصيف هو المكان الأكثر برودة في الكنيسة ويستطيع فيه أن يغفو غفوات متقطِّعة طافحة بالأمل، حالماً بصفوف من التائبين عن خطاياهم ينتظرون دورهم لكي يعترفوا.

«يا أبتي، أريد أن أعترف».

للمرة الأولى، منذ أن كان في بورغو، انتقل دون ميلڤيو من الحلم إلى الحقيقة دون خيبة أمل.

«أنا أسمعك، يا بني».

تلقّى وجه ميلشيور نفحةً من أنفاس محمّلة بالثوم الذي يدّعي دون ميلڤيو أنه يداوي به عسر هضمٍ ذا منشأ نفسي. ورغم ذلك وجد القوة ليبوح بآلامه. يريد أن يحب كل إنسان لكنه لم يكن يستطيع إلا

كرههم. سأله دون ميلڤيو: «هل تصلّي؟» أجاب ميلشيور: «كثيراً. أصلّي للسيدة العذراء ولملاكي الحارس.

ـ هل تتعبّد للقديسين؟

ـ نعم، أفوّض أمري للقديس دومينيك والقديس لويس دي غونزاغ».

قال دون ميلڤيو الذي كان مأخوذاً بالقديس جيروم لأنه تغذّى بالجراد: «إنهما قدّيسان متميزان جداً. لماذا لاتخاطب القديس جيروم؟».

قال ميلشيور: «سأفعل هذا».

مرّ صمت محمّل برائحة الثوم. كان دون ميلڤيو على وشك أن يغط في نومه المعتاد، من جديد، عندما سعل ميلشيور، عمداً، سعالاً خفيفاً.

قال دون ميلڤيو:

«أما تزال هنا؟ لقد منحتك المغفرة».

قال ميلشيور: «يجب أن أعترف بخطيئتي الأخطر».

قال دون ميلڤيو وهو يتثاءب: «ماهي؟»

تأخّر ميلشيور في الرد، وهو يدلّك إحدى ركبتيه التي بدأت تؤلمه، على خشب درجة السلّم الصغير.

همس قائلاً: «ليست لديّ الشجاعة».

شجّعه دون ميلڤيو، الذي بدأت مدة الاعتراف بالنسبة له تتخطى حدود قلة الاعتياد، قائلاً:

«يجب أن ترغم طبيعتك».

قال ميلشيور: «لو كنت أستطيع أن أرغم نفسي لما كنت بحاجة لأن أعترف، آنذاك لن يكون لخطيئتي وجود».

وعلى الرغم من نعاس دون ميلڤيو وقلة ممارسته في قضايا النفوس المعذّبة فقد كان ذهنه حيّاً وفهم بالإشارة.

قال: «أنت جبان. هذه هي خطيئتك».

صرّح ميلشيور: «نعم».

عاد دون ميلڤيو بخفةٍ زمنيّة، لم يكن يعتقد أنه قادر عليها، إلى إرشادات المدرسة الإكليريكية.

وأعلن بلهجة وقارٍ مصطنع: «للتغلُّب على الجُبْن، يجب أن يكون المرء متواضعاً. ولكي يكون متواضعاً يجب أن يكفِّر عن ذنبه.

ـ هذا ما أفعله.

ـ وماذا تفعل؟».

قال ميلشيور بشكل مثير للشفقة: «أشعر دائماً بعطش رهيب وأحاول ألا أشرب».

قال دون ميلڤيو: «يمكن لهذا أن يؤذيك. عليك أن تختار أسلوباً آخر. تذكّر أن أكبر تواضع هو أن تكون صادقاً تجاه نفسك مثل الآخرين.

ـ قلت لجدي بأنني أريد الدخول إلى الدير لكنه عاقبني. يريد أن أصبح مهندساً زراعياً.

ـ ماذا فعل لك؟».

قال ميلشيور وحلقه جاف: «حرمني من الماء».

اقترب دون ميلڤيو الذي لم يكلِّف نفسه عناء اختراق الظلام، ليتعرّف على النادم من خلال الشبكة.

صمد ميلشيور بشجاعة أمام رائحة الثوم. وتوسّل قائلاً: «ماذا عليّ أن أفعل؟»

قال دون ميلڤيو: «عليك أن تتحمّل العطش، حتى يمل جدك من معاقبتك به. عندئذٍ ستكون الرابح».

ضم ميلشيور قبضتيه.

قال بتصميم: «هذا ما سأفعله».

عندما عاد إلى منزله، وجد جدّه منهمكاً عبر حساباته في الردهة. وعندما يجري حساباته يكون سريع الغضب أكثر من العادة، لأنه يكتشف أن أولئك الأنذال في القرية جعلوه يدفع لهم ثمن القصب ضعف المرة السابقة.

سأله دون أن يرفع عينيه عن سجلّاته: «أين كنتَ؟».

لم يجب ميلشيور وشعر بحرقة مفاجئة تجفّف حلقه.

أعاد الصوت بنبرةٍ قاطعة: «سألتكَ أين كنتَ؟».

أصبحت الحرقة لاتحتمل.

أجاب ميلشيور: «ذهبتُ لأتنزّه في الحقول».

جرى إلى المطبخ وبدأ يشرب من الإبريق مباشرةً. شرب جرعات كبيرة، وكأن به مساً من الشيطان، بينما كانت الدموع تسيل على خدّيه وكأن الماء الذي يبتلعه يجد وسيلة للخروج من جديد، من شدة الغيظ.

2. *خمسة «هيمبيرات»(*) في عامٍ واحد*

أصدرت السلطات، على الرغم من الراية الكبيرة المنشورة على شرفة دار البلدية، واللامبالاة العامة أمراً بإقامة الأعياد بمناسبة ولادة ولي العهد[10]، وتغطية بورغو بالملصقات التوضيحية. وللسرعة، وبما أنه لم تكن هناك مطبعة في القرية، أملوا بالتلغراف نص الملصق إلى مطبعة محترمة في أقرب مدينة. لكن، إما بسبب شرود عامل البرق، أو إهمال عامل الطباعة، وجدوا في رزم الخمسمئة ملصق، عند وصولها إلى المحطة، في الغسق، خطأ

(*) الخطأ الملصق هو بكلمة «Humbert»، فقد كتبت «Himbert» «هيمبير» وهو اسم ولي العهد (هومبير) أو (أومبيرتو II) ، الذي ولد في نابولي من العام 1904، ومات في العام 1986.

مطبعياً رئيسياً يتعذّر إصلاحه لأن الظلام قد بدأ يخيّم. بعد ربع ساعة من الذعر البلدي عزموا على اختيار الحل الوحيد الممكن.

«لنلصقها كما هي، المهم هو النيّة».

قبل نهاية السنة، ولد أربعة أطفال في بورغو، ودعوا جميعاً «هيمبير»: كان اسماً شخصياً حديثاً جداً.

3. لمسة الملك

«مرّت العربة الفاخرة، تدفّق الحشد وفرّقنا، وغاب عن نظرنا الوالد «كوريتي». لكن ذلك لم يدم سوى برهة. عدنا ووجدناه على الفور، لاهثاً، وعيناه مغرورقتان بالدمع، وهو ينادي ابنه رافعاً يده في الهواء. اندفع ابنه الصغير نحوه، عندئذٍ صاح قائلاً له: «تعال إلي هنا، يا صغيري، ماتزال يدي ساخنة!» ومرّر يده على وجهه قائلاً: «هذه لمسة من الملك»[11].

أغلق معلّم المدرسة الكتاب ثانيةً وتمخّط بسبب البرد والتأثّر. رفع عينيه باتجاه التلاميذ باحثاً عن فمٍ ليردّد، لكن نظرَه لم يجد سوى وجوه مطأطئة. ثم التقى بعيني غاريبالدو اللتين كانتا تحدّقان نحوه مثل مصباحين.

قال المعلم: «غاريبالدو! تعال وردّد».

لكنْ غاريبالدو لم يجب. راح يقلّب حقيبته.

أصرّ المعلّم: «هل عزمت؟».

وقف غاريبالدو بكل هدوء وحقيبته تحت ذراعه، واتجه نحو الباب.

قال بصوتٍ خافت: «لن أعود أبداً. اعذرني. وإلى اللقاء». وذهب.

ولم يعد أبداً إلى هناك. تمنّى معلّم المدرسة طوال أيام أن يقنع والدته باتخاذ إجراءات، لكن إسبيريا كانت ترفع ذراعيها وكأنها تقول: إيهٍ نعم، ماذا تريدني أن أفعل؟

فضّل غاريبالدو الذهاب إلى الحقول مع غافور الذي لم يعد يريد الذهاب إلى المدرسة لأنه ارتبك عند النداء، وبدل أن يقول غاستون ڤوريتي، قال «غا.... ڤور.....».

كان غاڤور محدودب الظهر كثيراً لأنه أصيب مراتٍ بالحمى. في ذاك الشتاء بقيت نوافذ القرية كفيفة لمدة أسبوع، لأنّ الحمى كانت في الأنحاء. وراحت النساء يلتقين عند العين ويتبادلن الأنباء. عندما تأتي الحمى كان من الأفضل أن يسترد اللّه الأطفال. لكن غاڤور وعلى الرغم من الحمى الرهيبة التي أصابته نجا.

4. شراب النعناع السكّري في حمّام مارغريتا

كان ميلشيور يأتي لتمضية شهر أيلول في بورغو. يجلس على شرفة المقهى مرتدياً الثياب البيضاء، ويجعلهم ينادونه بالسيّد المهندس. كان يدرس الهندسة الزراعية في مدينة يذهبون إليها بالقطار، ولايقول لأحد أبداً صباح الخير أولاً. لكن دراسته كانت فاشلة لأنه يكره الهندسة الزراعية. ومن بين جميع المواد التي تُدرّس هناك مادة واحدة تستهويه، وهي مهملة ويسخر منها، تقريباً، الطلاب الأكثر نباهة: علم النبات، الذي أخذ يدرسه بنوع من التملّك اليائس. وما كان يجذبه خصوصاً هي الطحالب والحزاز(*)، إذ يلهمه شكل حياتها نوعاً من الغيرة المحبّبة. بدأ يجمعها ويصنّفها بعناية في الغرفة التي تأمّل فيها والده القدّيسة أورسولا، وزيّن الجدران بالصناديق الزجاجية الصغيرة التي كان يصنعها بنفسه: نوع من علب المُذْخَر(**) تكتسب عند المساء سحراً مفرطاً ومُتيِّماً(***)، بسبب بعض الطحالب القاتمة والوَبِرَة، والحزاز المتورّد والفاجر الذي جمعه من صخور الدولوميت(****) خلال

(*) حزاز (نباتات لها سوق وورق وليس لها جذور حقيقية).
(**) مُذْخَر (صندوق للذخائر الدينية).
(***) تيمية (عبادة الأشياء المسحورة).
(****) دولوميت (كربونات طبيعية مزدوجة من الكلس والمغنزيوم).

رحلة مع المدرسة. احتفظ ميلشيور من هذه الرحلة القصيرة بذكرى مليئة بضيق النفس: كان العطش قد عَذَّبَهُ طوال السير في الجبل، وأصيب بإغماء سبقه دوار. ثم لم يعد يذكر شيئاً، لأنه عندما استيقظ كان عائداً إلى السهل بعد يومٍ وليلة من النوم بلا أحلام.

كان يمضي فصولَ صيفٍ من الوحدة الرخوة في حمَّام مارغريتا في محطة اصطياف مشهورة، وكان يرسل إلى جدِّه بطاقتين بريديتين مع التحيات الموقَّرة من حفيده ميلشيور، واحدة بمناسبة عيد القدِّيسينَ بطرس وبولس، وأخرى بمناسبة حلول عيد صعود السيدة العذراء. كان يعود أبيض تماماً كما ذهب، وكان جده يسأله ما إذا كان أمضى الصيف محبوساً في الفندق، وهو يشعر بسبب هذا الشحوب، أنهم كانوا يسرقون منه النقود المُنفقة في المصيف. وكان ميلشيور في الواقع يكره الشاطئ حيث ينزل كل صباح، في جمى قبعته القشِّية ليمضي ساعات من البطالة في التحديق إلى البحر وسحق الرمل بعصاه. كما كان يذهب في المساء للجلوس على شرفة المقهى وهو يغنِّي في حمَّام مارغريتا، حيث تحدُّق «إيڤون» إليه بفتور في فترة التحليق الغنائي النهائية؛ ويطلب وميلشيور خمسة كؤوس من شرابِ النعناع السكَّري المثلَّج مغرقاً حزنه في جرعات قوية تتركه متقطِّع النَفَس. ثم يعود إلى الفندق منهكاً ومسكوناً بأفكار انتحارية.

كانت صاحبة الفندق تقول له: «سيِّدي المهندس، ليس جيداً أن تبقى وحيداً هكذا. يوجد العديد من الفتيات الشابات اللواتي تسعدهن مرافقتك...».

لكن ميلشيور كان يذهب مزوَّداً بمجرفة وكيس صغير إلى غابة الصنوبر بحثاً عن الطحالب.

5. كتاب مليء ببغاوات ذات ألوانٍ لاهبة

كان غاريبالدو وغافور يحلمان بالفرار مع «أبوستولو زينو»،

الذي كانت عربته المغطاة تقطع بورغو كل خريف: عربة متأرجحة مثل ميزان، مغطاة بنسيج كتّاني مشمَّع، لونه أخضر باهت. كان أبوستولو زينو يبيع البياضات، والقدور الكبيرة والروايات المسلسلة، ويبيِّض القدور ويرمّم أواني الفخّار: لكنه كان قبل كل شيء صاحب الدمى المتحرِّكة. يقيم في الساحة مع بغلته التي كان رسنها المشدود إلى النُّصب هو وحده الذي يمنعها من الانهيار، وكان يكفكف أحد جوانب العربة على شكل شرفة ليعرض بضائعه. بعد البيع ينتقل إلى القدور المعدنية والأحواض الطينية. وإذا لم يكن العمل كثيراً يقدِّم عرضاً، هذا إذا لم يكن متعباً جداً، لأنه كان يقدِّم مسرحاً للمتعة أكثر منه للربح. يرفع جانب العربة ويزيل الغطاء فيصبح المسرح جاهزاً. يبقى الديكور هو نفسه كل عام: شرفة مليئة بورود زاهية الألوان تطل على حديقة قاتمة وغريبة، ثم يقدِّم مآسي فيليس كاڤاللوتّي، تماماً كما يقدِّم تمثيليات شيوربادورا[12] التهريجية والمرحة.

كان أبوستولو زينو العَدَمي(*) المولود في كاراري، زاهداً وحاداً مثل نتوءات جبال الألب، التي يشبهها خاصة باليدين، بسبب حياته كمجّار يعمل على الرخام حيث انتهى بسقوط عمودي من ارتفاع أربعين متراً، والارتداد من صخرة إلى صخرة، والنتيجة الوحيدة كسر في الوركين، اللذين بقيا رخوين ومنحرفين. كان يدعى أبوستولو زينو وهو اسمه الحقيقي[13]، ولم يكن يحتمل أن يُعطى لقباً. اشتريا منه كتاباً كثير الصور، مليئاً بالوحوش والببغاوات ذات الألوان اللاهبة، لحتاجَ غاڤور أن يقرأه مرةً واحدة ليحفظه غيباً. كان «جـ. أنسيلمي» هو الذي رواهُ على حلقات، مع أن المؤلِّف الحقيقي يدعى «أليغيري». اعترف غاڤور، مدفوعاً إلى البوح من جرّاء كل هذه الآلام، إلى غاريبالدو، أنه كان ينام على الأرض مباشرةً والهاون على ظهره كي يجعل حدبته تختفي.

(*) عدميَّة (نظرية تقوم على تحرير الفرد من كل سلطة أو انتماء).

كان الصيف طويلاً جداً في تلك السنة لدرجة أنهما بلغا سنَّ الرشد في شهر أيلول. وفي شهر أيار أيضاً راحا يغامران بالذهاب إلى الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى البحر، ويتسلّيان بالتقاط الحشرات والفراشات ليدرساها ويدفناها بأبّهةٍ كبيرة. فاجأهما أيلولُ فوق الكثبان بين الشجيرات يختلسان النظر إلى النساء اللواتي يبدّلن ملابسهن بعد الاستحمام. كان غالباً ما يرافقهما غيدو البدين، الذي رغم أنه يصغرهما ببضع سنوات، كان يفوقهما رجولةً ببضع سنتيمترات. بقي غافور قصيراً جداً، لكن شعر جسم الرجل نَبَت له. كان يبكي بسبب حدبته التي لم تكن تشير إلى أنها تريد أن تصغر على الرغم من الهاون. بل على العكس تماماً.

6. *قليل جداً من الماء في ليبيا*

نظّم جدّه، كي يواسيه، حفلاً على شرفه. عندما نزل من عربة الخيل كان أفراد طاقم المزرعة كلهم مصطفّين في الباحة مثل الإوز ليهتفوا له:

«يعيش السيّد المهندس!».

حضر حفل الاستقبال بأكمله، مبتسماً كما في الصور. صافَحَ أناساً، استمع بصبرٍ إلى المدائح. بعدئذٍ هرب إلى غرفته. لطالما حلم بعلم النبات وبليبيا، وها هو قد عاد مهندساً، لأنه، وكما قال له جده، لابُدَّ أن يعطوك هذه الشهادة يوماً ما، ومُغْفىً لأنه في ليبيا، هناك القليل جداً من الماء لعطشٍ مثل عطشه.

7. *يسوع في الكأس*

كان إنذاراً تنبيهاً. البرهان على أنها لم تكن قرية نسيها الله، حيث يموت الناس في الخطيئة. جاء يسوع لزيارتهم عندما لم يكن أحد يتوقّع ذلك، وخاطب واحداً من أكبر الخاطئين (كما حاول هذا أن يشرح ذلك فيما بعد بهزاتٍ كبيرة من رأسه): «كيرينو»، هذا الذي

يصلح المظلات ويصنع أغطيةً للسيارات من نسيج الكتّان المشمَّع، المجدِّف، ذو الخبرة الصلبة والخيال الخصب، الزبون الثابت للخمّارات.

كان كيرينو يلعب الورق عندما كانت تبرق وتمطر في الخارج. في يده اليسرى كأس من النبيذ الأحمر، وفي اليمنى شاب البَسْتوني الذي لم يعد يفيده في شيء، لأن خصمه لديه الآس الرابح. كشف كيرينو شاب البستوني وأطلق شتيمة جديدة تماماً، اخترعها في اللحظة ذاتها، على يسوع المسيح:

«ملعونٌ يسوع في الكأس!».

اخترق البرق السماء في الخارج، وأطفأت هبة ريح الشمعة. عند ذاك حدث أمرٌ أقسم خمسة أشخاص أنهم رأوه. اشتعل ضوء في الظلام، كان شبحاً مضيئاً في كأس كيرينو: بدا رجلاً صغيراً جداً، شاباً، شبه عارٍ، يحمل تاجاً من شوكٍ على جبهته وصليباً على كتفيه. عندما أعادوا إشعال الشمعة عادت الكأس طبيعية من جديد، لكن كيرينو كان قد فقد القدرة على النطق.

علموا في اليوم التالي أن الحرب قد اندلعت. واختفى كيرينو تلك السنة ليعمل راعياً في السبخات الساحلية حيث لايفيده الكلام في شيء.

8. قالب الجمال

كان غاريبالدو قالب الجمال يقول: «ذاك الشخص هو الذي قال ذلك».

كانا يسيران على شاطئ البحر ويتمدّدان على الرمل الفاتر لشهر أيلول. وكان غافور قد استسلم لحدبته ونَسِيَها وهو يدرس السياسة.

بات يقول: «حدِّثني عن الحرب! في الحرب، يصبح الفقراء أكثر فقراً، والأغنياء أكثر غنىً».

مَرَّ نَوْرَسٌ قريب جداً. وعلى مسافة أبعد نساء مرغوبات أكثر.

تمتم غافور قائلاً: «الجمال هو شيء آخر. الجمال هو أن تكون حرّاً».

9. *الجيش يرحل*

تعرّف على أسمرا[14] عند النهر، بدأ ذلك كلعبة بسيطة وكنوعٍ من الكبرياء قليلاً لأنها لم تكن تريد أن تخرج من الماء.

«هيّا أيها الأحمق، التفت إلى الوراء».

كان غاريبالدو يقول وهو يضحك جالساً على ثياب الفتاة الشابة:

«سأنتظر هكذا حتى المساء».

لم تخرج أسمرا من الماء حتى المساء. أصيبت بنزلةٍ رئوية لكنها وقعت في غرام هذا الشاب، خيطي الشكل، صاحب الشعر الأصهب الكامد، الذي ذهب آخر الأمر مخذولاً وهو يتمتم بالاعتذارات. كان لأسمرا ابتسامة متكبِّرة وأنف مستدق الرأس لفتاة عنيدة. وكانت تود أن تكون حارسة للخيول في السهول، وعلى العكس من ذلك جعلوها تعمل على نَوْل. لهذا السبب كانت تشعر أن الرجال أعداء.

كانت تقول: «يظنُّون أنفسهم متفوّقين لأنهم يبولون على الجدران».

كان لها طبع الخيول المتوحِّشة النُّفور، ومنخران رطبان يتوسّعان تحت تأثير الروائح أو الغضب. باتا يلتقيان مساءً على بوابة المنزل الذي تسكنه مع عمّتها. هناك دغل من الورد، وكان غاريبالدو كل مساء يقدِّم لها وردةً تنتزع أسمرا بتلاتها من الغم. صارا يتبادلان قبلات طويلة، حارّة ووجِلة: في الليل تضع أسمرا

المشاريع وهي تطرِّز الأغطية؛ وفي المساء الذي حاول فيه غاريبالدو التخفيف من أحلامها وهو يقدِّم لها الوردة المعتادة، قالت له:

«نكاد لايعرف أحدنا الآخر، وها أنتذا تذهب».

تبادلا قبلةً عاصفة. وفيما هو يبتعد نادته أسمرا وصرخت قائلة:

«إذا ظننت أنني سأنساك، فأنت تخطئ، إنني أنتظرك، وصدِّقني سأسخر كثيراً من النمساويين!».

ثم صفقت البوَّابة حانقة.

ذهبوا من عقدة السكة الحديد، التي رقِّيت في هذه المناسبة إلى درجة محطَّة، لكنها حتى الآن بلا اسم. لم تُظْهر أسمرا نفسها، لكن غاريبالدو شاهد باقة من الورد على دعامة عوارض، وَفهِم أنها جاءت إلى هنا أثناء الليل. «الوداع، يا جميلتي، الوداع». حاول أن يغني واحد من بينهم على النافذة. وكان غاڤور، الذي وصل في اللحظة الأخيرة يحرِّك منديله أحياناً، ويمسح به دموعه أحياناً أخرى، بينما راح القطار يبتعد على الخط الحديدي.

لم يبقَ سوى قرية للمسنِّين.

10. من الجبهة إلى الجبهة

«أسمرا، يا عزيزتي، نموت هنا مثل الجرذان، وهذه الخنادق هي مجارير حقيقية. ماذا تستطيع إيطاليا أن تفعل لي حقاً مع هذا البرد الجليدي! سألت الرفاق ماذا يعني لهم هذا، وهم من رأيي. اتهمني الكابتن بالتخريب. أنا قلت له: قالب الجمال».

«أنتَ تتذمر، لكن هنا أيضاً لانستطيع القول إننا نحيا حياة مرفَّهة. لقد هطل الثلج ويجب أن ترى هذا. كل شيء متجمِّد، كل

الحقول احترقت، سيؤدي ذلك إلى مشاكل. أذهبُ أغلب الأحيان لزيارة والدتكَ التي تجلس مترهّبة في منزلها تحدّق بالجدران».

11. غير محظوظين مع الأقدام

برزت يوماً على الطريق الرئيسي الذي يؤدي إلى البحر قبعة عالية جداً، تعلو رجلاً رابط الجاش يرتدي الفراك(*). كان يدفع عربة صغيرة حمراء يصحبها كلب، كان أحد أجداده جعيداً(**) وعلى العربة توجد لافتة:.

الدكتور إسبيرانس

معلومات وتنبؤات

معجزة المرآة

فتح مخزناً على الساحة، وأذاع طوال بعد الظهر «عايدة» على فونوغراف له صيوان. عند المساء كانت جميع العائلات التي لها قريب على الجبهة قد اشترت مرآة جيب وحاولت أن تلتقط بها الشخص المقصود. نجح الجميع في ذلك تقريباً، عدا أولئك الذين بدوا متشككين تجاه الميزات الميتافزيقية ولم يشتروا المرآة إلا كي لايكونوا فُضْلة أو لايتحدّوا القدر. حسب تفسيرات الدكتور إسبيرانس كانت الأداة تعمل بفضل ميزات التخاطر. كان قد باع للجنود، على الجبهة، مرآة مماثلة لتلك التي كانت الآن معروضة لهؤلاء السادة - السيدات: الباقي موجود تحت أعينهم. لم يكن العلم قد توصّل إلى شرح الظواهر النفسية - التخاطرية. وكان يظهر في مرآته نقيب أشقر له شاربان ممسوحان بالمرهم، كان قد ارتبط به هو شخصياً بالتخاطر النفسي، يغمز بعينه ويحيي بحركات كبيرة.

سَهّلَتْ ظلالُ نار السهرة وشموعُ شحم الأمعاء الضعيفة أمرَ

(*) فراك:(لباس رسمي أسود وضيّق).
(**) جَعيد (كلب مجعّد الوبر، طويله).

الاتصالات. عادت كثير من الوجوه إلى منازل القرية التي خرجت منها قبل سنتين؛ بعضها كان تعباً وهزيلاً ويرسم شبه ابتسامة؛ وبعضها الآخر يحتفظ بفرح المراهقة الذي لم تستطع الحرب أن تضعفه. وبعض آخر كان يفتح فمه ويلقي خطابات طويلة، لكن ما يقولونه لم يكن يُسمع منه شيء لأن الصوت، كما شرح الدكتور إسبيرانس، لم يكن تخاطرياً نفسياً، لسوء الحظ.

وقد تلقَّت إسبيريا، عن طريق المرآة، أخباراً عن غاريبالدو. كانت ليلة مظلمة تنيرها فجأة «نيران البنغال(*)»: التي تضيء الثلج المتساقط كما في الكرات الزجاجية الصغيرة التي توجد داخلها صورة مَعْبَد. كان غاريبالدو متقوقعاً على سلك الحديد الشائك ويبدو نائماً. اقتربت منه المرآة ورأت إسبيريا وجهه. كانت عيناه مفتوحتين ويحرِّك شفتيه.

فكَّرت إسبيريا: «إنه يتأوه، إنه يتأوه».

نظرت إليه قلقة بضع دقائق، ثم ذهبت لتحضر زلميرا: كانت هذه تداوي التمزُّقات والتواءات المفاصل بمشاقَةِ الكتَّان ولصقاتٍ من بياض البيض، وكانت خبيرة في جميع أنواع الآلام، وعند اللزوم، كانت تداويها بإشارات الصليب والصلوات. وهنا أيضاً كانت ليلة جهنَّمية والريح تطيِّر الثلج الممزوج بالمطر. وصلت زلميرا تحت شالها.

شخَّصت قائلة: «أرى أنه أصيبَ بدوار».

ناحت إسبيريا قائلة: «أما أنا، فأعتقد على العكس، أنه مصاب بساقيه».

وبناءً على طلبهما قامت المرآة بجولة حول ساقي غاريبالدو. كان بنطاله سليماً، ولم تكن تظهر بقع من الدم.

أصرَّت زلميرا: «أقول لكِ إنه أصيب بتوعك».

(*) نار البنغال (شهب نارية مختلفة الألوان).

بعد خمسة أيام، تلقّت إسبيريا برقية تعلن أن غاريبالدو في المستشفى العسكري وأطرافه متجمّدة.

أسرّت إسبيريا إلى زلميرا: «لابد أنهما القدمان، لم يكن لعائلتنا أبداً حظ مع القدمين».

12. الإنـجيل كما يراه دون ميلڤيو

مع أن أحداً لم يأتِ حتى الآن للاعتراف، منذ أن تم الاستيلاء على مخزن الغلال، فقد بدأ الناس يذهبون إلى القداس يوم الأحد، إذ لا شك أن شيئاً ما قد عُلِم، وكانت تلك طريقة لشكره. كانوا يصلّون في صمت، واقفين في مؤخرة الكنيسة جماعات صغيرة ولايردّون على الصلوات؛ لكنهم كانوا ينظرون إليه بهدوء، في وقفةٍ تضامُنٍ أكثر منها عبادة. لم يكونوا يثيرون المشاكل، عدا زلميرا ورؤاها. مع تقدّمها في السن تحوّلت من مُجبِّرة إلى متزمّتة، وباتت ترى معجزات في جميع الأنحاء. وأصبح من العسير أن يثنيها أحد عن رأيها.

كان دون ميلڤيو يقرأ مقاطع من «الاشتراكية المسيحية» للأب كورسي على أنها الإنجيل، وكان يقدّر مفاهيمها المتعلّقة بالعقيدة التي يجب ألّا تكون جامدة، بل تتطوّر بموجب عصرها.

كان يقول: «سيأتي يوم لن يكون للعقائد فيه وجود إطلاقاً، لأنه لن يكون ثمة مبرّر لوجودها».

وكان دون ميلڤيو يكره العقائد، إذ يجدها مناقضة للرحمة. وهو يحب الدين بالطريقة نفسها التي يحب بها الهيدروليك، ويحب أن يرى بوضوح كل أجهزة آلته.

13. الأمل مجاني

قالت أسمرا «دُقّ الباب»، وهي تكلِّم نفسها لأن عمّتها لم تكن معنية بمسائل السمع.

طرقتان صغيرتان دُقتا بيدٍ متردِّدة.

«دُقَّ الباب».

خلعت صدارها، وغرزت إبرتها في التطريز المشدود على الطارة، وشقت الباب. دخلت حزمة من الليل، ومع آخرها اللِّباس الأبيض لميلشيور.

قالت تفاحة آدم التي كانت تصعد وتنزل بعصبية:

«كنت آتٍ لزيارتك».

قالت أسمرا: «أية لباقة».

كان ميلشيور يتردد على عتبة الباب، مدوِّراً ومعيداً تدوير قبعته بين أصابعه البدينة.

«ادخل إذن».

كانت أسمرا حسب عادتها تخاطب الناس برفع الكلفة آلياً، لأنها لاتعرف قواعد استخدام صيغة الجمع التبجيلية. وعندما تغامر وتستعمل هذه الصيغة تخطئ على الفور في تصريف الأفعال. جلس ميلشيور على حافة الكرسي وركبتاه مضمومتان، وعادت أسمرا للتطريز من جديد وهي تنظر إليه نظرة جانبية. وراح ميلشيور يسعل ويسعل سعالاً خفيفاً.

«كنت أتساءل إذا كنتِ توافقين على القيام بنزهة معي الأحد القادم».

قالت أسمرا: «القيام بنزهة معك».

قال ميلشيور وكأنه يعتذر: «أعني في ساحة القرية. إنهم يقومون ببناء المسرح، والجميع يذهب لرؤيته، ويمكننا تناول حلوى مثلَّجة».

كان ميلشيور يتكلَّم بصوت خافت، وله وجه أجرد وجميل،

وشفتان شاحبتان وعينان ثقيلتان تبدو نظرتهما متّجهة نحو الداخل. كانت العمة تقول إنه شاب شجاع، ربما لأنه مهندس، وبعد وفاة جده سيصبح مدير الفاتوريا، وربما أكثر من هذا. كان سميناً وهادئاً، ويرتجف صوته عندما يتكلّم عن أشياء مهمة، ويملك الفونوغراف الوحيد في القرية بأسرها. وهو يعرف أسمرا منذ كانا طفلين ولم يُصرِّح لها إطلاقاً بميله إليها، بسبب عجزه. لكن أسمرا أدركت ذلك بوضوح، ولهذا صارت تفضّل أن تتحاشاه، كي لاتصل إلى حد إعطائه آمالاً وتضطر بعدها أن تقول لا. مع ذلك، رقصت معه في حفل القرية، لأن الإنسان وهو في الثامنة عشرة من العمر ليست لديه القوةُ على رفضِ رقصةٍ.

كانت الساحة محاطة بأكاليل من الورق الأخضر والأحمر مع القناديل الورقية الملوّنة. شعرت بين ذراعي هذا الرجل الرخوتين اللتين لاتملكان القوة على تدويرها بأن أخطبوطاً خارجاً من الماء يضمها، وحلمت بذلك ليلتين متتاليتين استيقظت بعدهما وهي تنضح عرقاً.

سألها الأخطبوط: «هل آمل برؤيتك من جديد؟».

فأجابته أسمرا أن باستطاعته الأمل دائماً إذا أراد. الأمل مجّاني.

كانت ذقن ميلشيور منخفضة إلى صدره وهو لايتفوه بكلمة، وكأنه قد نام بسبب لامبالاة هذه الضيافة. صارت رؤوس أصابعه التي تمسّد شريط القبعة وحدها تُظهره أنه مستيقظ. ثم حرّك قدميه ليصدر ضجة.

تمتم قائلاً: «هل أستطيع الأمل يوم الأحد القادم؟».

قالت وهي تقف: «ميلشيور، تعاشروا كالأحباب وتعاملوا كالأجانب. أستطيع أن آتي كل الآحاد للقيام بنزهة، لكن سيكون هذا كأصدقاء، ولاشيء أكثر».

وتركته ينزلق في الليل ويجتاز الحديقة، أشبه ببقعة من ضوء قمر.

14. *زهرة كاميليا في الشعر*

كانوا يعرفون ما هي الطائرات، مع أنهم لم يروها أبداً، وفي وقت متأخر من ذلك المساء خرجوا جميعاً إلى عتبات أبوابهم، يجذبهم هذا الضجيج الآتي من فوق. لكن هذا الشيء لم يكن طائرة وقد بدا كغيمةٍ غريبة محمّلة بالماء، إلى أن رآها أحدهم، أنها تشبه تنيناً، خطمه محاط باللهب كالتنين الذي يقطع القديس ميشيل رأسه في لوحة الكنيسة. ومن ثم سرعان ما فقد الشيء شكله، وتكشّف أنه منطاد مسيّر: منطاد مغزلي الشكل فاتح اللون، عُلّقت إلى مراوحه طُنُف(*) على شكل عناقيد مثل خرّاجات. تقدّم الناس إلى الطريق، ليروه بشكلٍ أفضل. حلّق المنطاد المسيّر فوق الساحة على علوٍ متوسط، ورمى المرساة فوق النصب. رأوا سلّماً من الحبال ينزل، أحاطه القمر بحزمة من الضوء، مثل كشّاف النور. ثم شاهدوا، في الصمت العام، تنورة لها زينة بشعة قرمزية اللون تظهر على سلّة المنطاد الطائر، وعلى طول السلم انزلقت امرأة مغرية لها وجه شاحب، غرزت في شعرها الكئيب زهرة كاميليا. كانت التنورات السبع المصنوعة من الدانتيل تحفُّ عند كل دَرَجة. عندما لمست الأرض قالت مع انحناءة «هوب لا» وهي تفرّ بحركة من الذراع كما لتحوّل التصفيق نحو فرقة موسيقية غير مرئية. عندئذٍ لحظ الناس أن عظام يديها كانت تُرى بالعين المجرّدة، ولون ثوبها القرمزي يقْطُر على الأرض مشكّلاً بركة قاتمة.

قصّ غافور، وهو يهذي، على غاريبالدو، دخول النزلة الوافدة الإسبانية إلى القرية. غطّى الأهالي جميع نوافذ القرية بالقماش

(*) طُنُف (إفريز الحائط وماكان خارجاً عن البناء).

الأصفر. وأصبح الصيف لزجاً مثل شراب السُكَّر: راحت الحمى تتسلَّل وتغزو القرية. وبات الهواء يشبه الدِبْق..

كان الدكتور كاميسي يردِّد، تاركاً على المناضد زجاجات الكالوميل، قائلاً:

«لكي يشفى المرء من النزلة الإسبانية، يجب أن يتغوَّط دماً».

15. حقيبة مليئة بالأغطية

انتهت الحرب في ما يتعلق بغاريبالدو قبل الأوان بثلاثة أشهر، وفَقدَ ثلاثة أصابع من قَدمه اليمنى. نزل من السيارة وهو يعرج، وعرض لأصدقائه صورة ممرِّضة من الصليب الأحمر من جَنْوة، لها عينا سمكة غُبَر(*) مقلية وياقة بحَّار.

أما غاڤور فقد نسي حدبته حتى أن أحداً لم يعد يلحظها تقريباً. وخلال ثلاث سنوات حفظ عشرات الكتب، حتى الكتب الأجنبية التي كان يبيعها إلى دون ميلڤيو على أمل أن يصبح ماركسياً. لكن دون ميلڤيو راح يجابه الشيوعية المتطرِّفة بالرحمة المسيحية. كانا يتشاجران ودياً طوال فترات كاملة من بعد الظهر، ويفترقان كارهاً أحدهما الآخر، وواعِداً إياه بألّا يبادله التحية أبداً.

عندما وصل غاريبالدو كانت أسمرا تنتظره عند البوابة في ثوب مُزَهَّر صنَعَتْهُ لنفسها في حال عودتِهِ في فصل الشتاء، وانتهت بارتدائه في جميع الفصول.

قالت له وهي تلقي بذراعيها حول عنقه:

«عندي حقيبة مليئة بالأغطية».

لم يكن غاريبالدو يعرف ماذا يقول لها بشأن قدمه، لكنها سبقته.

(*) غُبَر (جنس أسماك مفترسة من فصيلة الغاسيَّات).

«يستطيع الإنسان أن يركض بسبع أصابع مثلما يركض بعشرٍ، وهذا يجعلك أكثر إثارة».

تبادلا القبلات عند البوابة سنتين أُخريين، غارقين في بركٍ من الرغبة. كان غاريبالدو يحاول أن يجرّها إلى خلف المنزل، بين نباتات الأسل التي تحيط بالحفرة.

كانت أسمرا تجيب: «أنتَ مجنون. على أغطيتي فقط. على أغطيتي الجميلة المطرّزة».

16. الأخَوان مونتيرو

لم ترَ البلدة سيركاً مثل هذا إطلاقاً. كان كبيراً جداً، حتى أنه عندما أقاموه في الساحة ظلّت بعض المنازل المقابلة له تائهة تحت خيمته بين السقالات ومقاعد المدرّجات، وكسبَ سكانُها رؤيةَ العرض الليالي كلها بمجرّدِ وقوفهم أمام النوافذ فقط.

كان الأخوان مونتيرو يتسلقان نحو أرجوحة التريُض الأخيرة حتى لايعودا يبدوان من الأسفل أكبر من ذبابتين. عندئذٍ يبدأ قرع الطبول لأن مونتيرو الأول، يائساً، يريد أن يرمي بنفسه في الهواء، بينما يحاول مونتيرو الثاني ثنيه عن ذلك بحركات كبيرة. تصمت الجوقة الموسيقية، وينطلق مونتيرو الأول في الهواء مثل طائرة ورقية؛ لكنه يتجمّد فجأة قبل بضعة سنتيمترات من النُشارة، ورأسه إلى أسفل، بينما تسمع فرقعة خيط الحرير الفضي الذي يُبقي أسنانَهُ متصلةً بأسنان أخيه، مثل لعاب عنكبوت. فيصرخ الحضور: «آآآآآآآآه».

عندئذٍ يبدأ مونتيرو الأول بالصعود من جديد على طول الخيط الذي يبتلعه شيئاً فشيئاً حتى اللحظة التي يجد فيها نفسه بين ذراعي أخيه الذي يعانقه. كان تمثال الملك البرونزي نفسه، الذي يَعْلَقُ وسط الحبال، يلمع عرقاً من الانفعال.

استجمع غاريبالدو وغيدو البدين شجاعتهما، وذهبا للتحدُّث

مع شاربَيْ السيد وانيون، «سيشوبيبي»[15]، الذي كان متنكِّراً بهيئة مديرٍ يبدو ضخماً وهو جالس، وضئيلاً وهو واقف.

17. إننا نرتحل

كانت الحرب قد أوقفت بناء المسرح في مرحلة وضع الأساسات والواجهة: مثلثٌ فوق مدخلٍ من نمط كلاسيكي حديث، يحتضن مستطيلاً من العشب. نبت داخل السور، من جرّاء ذلك، وربما بسبب الأوتاد التي كانت تحميه من الكلاب والرياح، عشب كثيف ومرتفع، أخضر غامق وغزير، كان يخرج على شكل باقات شعثة من البوابة التي لاباب لها.

بعد سنتين من الإهمال، وبما أن ثمن العَلَف كان مرتفعاً جداً، ولم يكن هناك العدد الكافي من الرجال لقطع البوص، ذهبت أسمرا إلى منزل إسبيريا وفتحت الإسطبل.

قالت: «سآخذها لكِ اليوم لترعى إلا ستهلك جوعاً».

ذهبت إلى المسرح. طَلَبَ الناطور، عند الظهر، تفسيراتٍ فسأل دون أن يدخل إلى الأرض المسوَّرة:

«ماذا تفعلين؟»

ردَّت أسمرا: «إننا نرتحل».

18. عشر ليرات نقدية وببغاء

كان الأخوان مونتيرو مقتنعين بأن المعركة الحاسمة ضد رأس المال ستندلع في إسبانيا. أما غاريبالدو فكان يعتني بالخيول. يضع كيساً من النشارة على كتفه، ويذهب لينثرها على الحلبة.

كانوا يأكلون جميعاً على المائدة ذاتها: طاولة ضخمة موضوعة على حامل من الخشب، تحت خيمة السيرك. وكان

شارباً السيد وانيون عند نهاية الطاولة برأسانها في زاوية مستقيمة مع فراك(*) ينميسيكوس، الحاوي الذي يمارس رفع الأجسام بقوة الإرادة وحدها، وقد اختار، بفضل التقمُّص، مسكناً لنفسه من أجل المستقبل عِبارة عن هيئة (بيتي)(**) وهو حيوان يعتبره سعيداً بفضل وحدته الدائمة. وكان غاريبالدو يجلس بين اللفافة الجلدية السوداء التي تحيط بالمعصم الأيمن لماسيست[16]، واليد اليسرى العصبية لِبيكوس بيل[17]، رامي السكاكين الأعسر، الذي ينتسب إلى مقاطعة الساقوا، والذي يكره كل أولئك الذين لايفهمون الفرنسية. عندما يأخذ ماسيست وعاء الحساء ليلعقه بفمه كان يعطي إشارة نهاية الوجبة. وكان غاريبالدو يقف مع غيدو البدين، ويذهبان للقيام بجولة تحت الشبكة، وهما يثرثران مع الأخوين مونتيرو. أما غيدو البدين فقد استُخْدِم ليتبارى مع ماسيست. يختلط كل يوم مع الجمهور، متأنِّقاً مثل سيِّد، بسترة وربطة عنق جذّابة، يقضم بذور اليقطين والفول السوداني حتى اللحظة التي يظهر فيها السيد وانيون أمام ستارة الفنانين ليتحدى الجمهور الكريم للمجيء كي يتبارى مع ماسيست. الرهان: عشر ليرات نقدية وببغاء يعرف بعض النكات بالنابوليتانية. كان ماسيست المغطى بجلد فهد يدور في الحلبة وهو يصرف بأسنانه في مواجهة الجمهور، ويلوي قضباناً تبدو من بعيدٍ حديدية. لكن عندما يبدأ مدعوو السيد وانيون بالسخرية، في الصمت العام، يقف غيدو البدين مهيمناً على المشاهدين في الردهة، ويقول في زمجرة:

«أنا!»

بالطبع، كان يخسر دائماً تقريباً، مع أنه في بعض الليالي، ولكي يرضي جماهير أقل تسامحاً، يطرح ماسيست أرضاً ويفوز بالببغاء الذي تُعادُ لَهُ سلسلته حين يتفرّق المشاهدون.

افترقا في روما.

(*) فراك (لباس رسمي أسود وضيّق).

(**) بيتي Yeti (رجل الثلج).

علت أيدي الأخوين مونتيرو بالتحية بينما راحت القافلة تتقدم على طريق نومنتانا. كانت العربة النقّالة تسد الموكب. ومن النافذة الخلفية، المحاطة بكلمات:

الأخوان مونتيرو
لاعبان بهلوانان

رسمت أيديهما إشارة إلى اللقاء حتى اختفت عن النظر.

تعانق غيدو البدين وغاريبالدو مرتبكين وسط الشوارع. كان غيدو البدين يملك عنوان معهد رياضي. رجاه قائلاً: «تعال معي. هناك دائماً عمل لرجل يفعل كل شيء».

لكن غاريبالدو كان قد حمل صرّته على كتفه.

قال: «كنت أريد فقط رؤية «بورتا بيا». حظاً سعيداً».

قيلَ لهُ بأن مالاتستا[18] قد وصل إلى ميلانو. لكنه توقّف في غروسّيتو[19].

19. ثمة أمل في الأرجنتين

استسلمتْ أسمرا للعناق على البوابة ثلاث سنوات أخرى، وهي تختنق من الإغواء. كانت فصول الصيف فاترة ورطبة، فصول صيف من الحنين، غارقة في حمرة البطيخ والأحلام النائمة في رطوبة بعد الظهر. كان غافور يأتي في المساء مع الصحف التي يخبّئها على حدبته السابقة، والتي تحميه، وهو على دراجته، من الجو البارد. كان يبدو أنه اصفرّ تحت تأثير غضبٍ مكظوم وأنه أصبح كئيباً.

«هل رأيتِ ماذا فعل الفاشيست؟ لقد ربحوا أيضاً مقعدين في الدائرة. الشرطة تحميهم».

هناك أيضاً الملصقات التي تعلّم طباعتها عندما عمل طابعاً(*)

(*) طباع (عامل في مطبعة ينضد الحروف أو يركب الصفحات الخ...).

في المدينة. كان خبيراً في السياسة كما كان، سابقاً، خبيراً في الزنابير، ويستخدم كلمات غير معروفة. وهو يتكلّم بالإيطالياني. ومنه علِمَ غاريبالدو الذي اعتقدَ نفسَهُ دائماً عاطلاً عن العمل، بأنه بروليتاري ـ مُستَغَلّ.

كان غاڤور يقول: «يجب أن ننظِّم أنفسنا، وإلا لا أمل لنا».

أما أسمرا فتحضِّر نبيذاً وبسكويتاً مصنوعاً بعنب كورنثيا، ويمضون السهرة حول المائدة، بينما تنام العمَّة في صمت طَرشها.

كان غاڤور يقول:

«لقد ارتكبتَ خطأ بانضمامك إلى أصحاب غروسيتو. هكذا لن نصل إلى أي شيء، إنه عنف فردي، دخان بلا نار».

كان غاريبالدو يتحدَّث عن غروسيتو، ويروي أخبار الإضراب، وقصة العمَّال الذين استولوا على لجافات(*) السكة الحديدية، والمحطة التي احتلوها، ورجال الدرك الذين أصيبوا بالخوف.

غاڤور المهتاج جداً كان يقول وهو ينط حول الطاولة:

«وماذا كسبتم من هذا؟».

وما أن يغادر غاڤور، حتى تتذمَّر أسمرا مغتاظة:

«لن نتزوج».

كان غاريبالدو يفكِّر بالأرجنتين.

«إنها فرصة فريدة، فكِّري فيها، أسمرا».

كانت السفينة ـ الشاحنة ستذهب بعد قليل، ناقلةً الحديد إلى بوينس آيريس.

«رحلة ذهاب وإياب، بضعة أشهر، مسألة توفير قليلٍ من المال».

لو أن أسمرا لم تكن أسمرا لبكت.

(*) لجاف (قطعة داعمة توضع عمودياً وتحفظ المسافة ثابتة بين الخطوط).

لكنها وافقت وهي صامتة. أرسل غيدو البدين من فرنسا مُلصَقاً صغيراً عليه إهداء، حيث يُشاهد مرتدياً بنطالاً قصيراً مع مئزرٍ لامع. دعى نفسه «الجبّار الإيطالي».

20. في «كاراري» مع القطران على مؤخّرته

دمدم شخص ضامر له خصلة شعر شقراء على جبينه:

«فلنجعلْهُ يهتف عاش الدوتشي!».

صاح الآخرون جميعاً: «نعم، هيا!»

كان أبوستولو زينو، المبطوح على عربته، مع هذا الرهط من الكلاب التي تطوقه يعاني الخوف والغضب الشديد. خطا الرجل الأشقر بضع خطوات لاعباً بالمطرقة، متبجِّحاً.

قال أبوستولو زينو: «لاتتحرّك، أيها الحيوان القذر. أستطيع أن أكون جدك».

التفت الأشقر نحو رفاقه مبتسماً ابتسامة حمقاء.

«آه، هذه نكتة جيدة، خاصة أن جدي قد توفي منذ أربعين عاماً!».

دوى انفجار ضحك عام.

قال رجل نحيف، أصلع الرأس، بخبثٍ:

«هيا، ڤينيريو، اعطه حسابه، اعطِ هذا الأحمر العجوز حسابه».

جاء الأشقر وانتصب أمام أبوستولو زينو، وأمسكه من شعره.

«هذا لكي تتعلّم كيف تحترم جدتي، التي هي سيدة محترمة!»

دوى انفجار ضحك عام آخر. وانثنى أبوستولو زينو بسبب ضربة مطرقة على خصيتيه، فالتقى وجهه بجزمة الأشقر المتأهّبة.

بقي عدة ثوانٍ منحنياً على الأرض، بينما خيط من الدم يسيل من بين شفتيه.

صرخ ذو الرأس الأصلع:

«القطران، أيها الشبّان، القطران. لنُعِدْهُ إلى كاراري بالقطران على مؤخرّته!».

تحمّست المجموعة، وامتطى فتى نحيل بعض الشيء، صبي تقريباً، دراجته وقادها بسرعة كبيرة حتى دكان الحدّاد. كان أبوستولو زينو يحاول، متحسّساً الأرض، الوقوف من جديد كصرصار وقع على ظهره، لكن وركيه كانا يخوران.

همس الأشقر: «اهتفْ، عاش الدوتشي!» كانت المجموعة تدخّن بانتظار القطران.

أمر ڤينيريو: «شكّلوا حلقة. خبّئوا الجهة المواجهة للكنيسة».

كان يوجد بين العربة والتمثال فراغ بخمسة إلى ستة أمتار، ويظهر جزء من حائط مقر الكاهن.

قال أبوستولو زينو الذي راح يبصق الدم:

«هل أنت خائف من الكاهن؟».

كانوا يشجّعون راكب الدراجة الذي خرج من نهاية الساحة بصيحات كبيرة، ومعه سطل صغير معلّق على المقود. زحف أبوستولو زينو على ركبتيه، ورأسه مرفوع.

قال ڤينيريو بنبرةٍ مهدِّدة:«اهتفْ عاش الدوتشي!».

أجاب أبوستولو زينو، وفمه مليء بالزَبد:

«أيها العبد الشقي!».

هجم عليه الخمسة. أمسك به ثلاثة منهم، والإثنان الآخران راحا يخلعان عنه ملابسه. خرج الصبي النحيف من بين الجمع وهو يرفع البنطال، أما السروال فقد مزّقوه لأجل الإسراع.

كان ڤينيريو يصرخ: «والخصيتان أيضاً، أيها الشبّان!» ولتتويج جرمهم قلبوا العربة ورقصوا على القدور.

أما الدمى فتقاذفوها برمياتٍ متصالبة وأخذوها بعدئذٍ ليلعبوا بها كرة قدم. كان أبوستولو زينو، الذي تخطى عمر البكاء، يهتز منتحباً بصمتٍ، فيهتز رأسه من أسفل إلى أعلى مع رجفة في الكتفين.

21. عشر شعلات صغيرة زرقاء

في الليلة التي رحل فيها غاريبالدو اضطرت إسبيريا أن تحمل القضية على محمل الجد، لأن الشعلات الصغيرة الزرقاء كانت الآن عشراً، واحدة على كل إصبع. حدث لها ذلك ليلة مقتل زوجها. كان ممدداً في النعش، وفمه يصر أن ينفتح على الرغم من اللصقة المشمَّعة. ذهبت إسبيريا إلى حجرة السلَّم لتأخذ زجاجة من الخل لترش به أرض المطبخ، وتزيل رائحة الموت التي تلتصق بالجدران. كانت الشموع النادرة في البيت موضوعة حول النعش، لكنها وجدت زجاجتها على الفور، لأن شعلة صغيرة زرقاء اشتعلت على خنصر يدها اليسرى. في اليوم التالي كفَّت عن التفكير في الأمر: كان عليها أن تنتزع بذور الفاصولياء وتضع نقيع الثوم للصغير الذي يعاني من الديدان.

لكنها خافت عندما ذهب غاريبالدو. بدا مساءً هائجاً من أماسي آخر الصيف، ينبئنا بأولى عواصف أيلول. بعد أن أخلت إسبيريا المائدة جلست على عتبة الباب وأطفأت شمعتها. في الخارج كان شهر تشرين الأول، وكانت الليلة صافية. أضاءت الشعلات فجأة، الواحدة بعد الأخرى مبتدئة من الإبهامين، مع صوت غازٍ مشتعل «بفويت». ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فبينما هي ذاهبة مسرعة إلى منزل زلميرا لتُعلمها بالأمر، اكتشفت أنها أصبحت زرقاء تماماً، ليس بسبب شعلة، بل بنور داخلي مثل نور حباحب(*) كبيرة. عندما رأتها زلميرا تدخل لم يراودها أدنى شك:

«أرى أنكِ آخذة بالتحوُّل إلى قدِّيسة».

(*) حباحب (ذباب ذو ألوان يطير في الليل في ذنبه شعاع كالسراج).

تناقشتا قليلاً لمعرفة ما إذا كان من الواجب إعلام دون ميلقيو بالأمر، وإذا ما كان هذا الهرطوقي سيشكك بأمرٍ هو البداهة ذاتُها. لكن رأي إسبيريا كان مخالفاً.

ردّدت قائلة: «من الأفضل الانتظار مع كل هذه الأشياء الحديثة التي اكتشفوها الآن حول الكهرباء. ثم ربما كان هذا ليس سوى الحنين إلى البحر».

تعوّدت على الفور على الشعلات الصغيرة، كانت تؤنسها. تشتعل ليلاً وتلمع بهدوء، دون أن تحرق الأغطية. ربما يقال إنها قناديل البحر الفوسفورية تحن إلى شاطئها، خلال ليالي شهر آب.

22. واحد اثنان إلى الأمام

ذهب غاريبالدو إلى منزل ميلشيور. وجده في قيلولة ممدّداً على أريكة رخوة مثله. كان وهو نائم يطرد ذبابة عن وجهه.

اعترضت المرأة القصيرة العرجاء التي تخدمه قائلة: «لايريد السيد المهندس أن يزعجه أحد».

فقال لها غاريبالدو: «انصرفي من هنا».

أمسكه من ياقته، بمهارة التقزز، وهزّهُ مثل شجرة خوخ. ففتح ميلشيور جفنيه.

صرخ وهو يبحث عن سترته بعينيه: «كيف تجرؤ»، لكنها كانت بعيدة جداً، مرمية على الكنبة.

قال غاريبالدو: «اسمعني جيداً، أيها الشراب الدبق. سأتغيّب بعض الوقت، وأعرف أنك آخذ في أن تصبح شخصاً مهماً. إذا ما حدث شيء لأسمرا وغاڤور في غيابي فستكون مسؤولاً عن هذا. وبعد ذلك سنرى».

كان ميلشيور يستعيد رباطة جأشه، معيداً شعره الذي سقط على أذنيه إلى القلنسوة. وراح ضجيج الأبقار التي تخرج إلى الفناء، ويهمزها صبيان المزرعة، يأتي من النافذة المفتوحة قليلاً.

سأل ميلشيور: «ولماذا أنا بالضبط؟

ـ لأننا أقرباء».

صفق الببغاء، الذي كان نائماً على مجثمه(*)، بجناحيه وأرسل صوتاً مزعجاً.

«هل رأيت، لقد فهم صديقك، حاول أن تفهم أنتَ أيضاً».

وغادر الغرفة.

اجتاز الفناء ويداه في جيبيه، راكلاً الحصى بقدميه. عندها ظهر ميلشيور على النافذة وصرخ قائلاً:

«إذا ما تنكّرت ذلك فسيكون احتراماً لأسمرا وليس لأنك تخيفني!».

سار غاريبالدو في طريقه وكأنه لم يسمع شيئاً. كانت القرية غارقة في الظلام منذ الساعة السادسة، حيث لم يكونوا يستطيعون ترك الأنوار مضاءة. وإلا تعرّضوا لركل الأبوابِ بالأقدام من قِبَل أفراد الفرق الفاشية وهم يصيحون: «ألا زلتم مستيقظين؟!» وخلال الليل كانت تُسمع مسيرات موقّعة: واحد ـ اثنان! إلى الأمام!

23. *ليس خوفاً، لكن كرمى للقرابة*

«إليكم كيف حدث هذا» شرح الأشقر الذي فقد قنزعته الصغيرة وكان عليه البقاء حليق الرأس على الصفر، مدة ثلاثة أشهر على الأقل، قبل أن ينبت شعره من جديد. وراح يضرب الطاولة بقبضته وأصدقاؤه ينتظرون أن يبدأ.

(*) مجثم (محط الطيور).

كان عائداً إلى منزله على الدراجة، بعد الاجتماع هناك على الطريق الرئيسية، من الجهة الأخرى للمستنقعات، باتجاه الجسور الثلاثة. كان مصباحه يرسل حزمة من الضوء الأصفر. كانت ليلة مناسبة للضفادع حيث هطل المطر تاركاً رائحة غبار رطب. سلكَ منعطف الإسطبل القديم وهو يفرمل إلى الخلف لأن المقود كان قاسياً ويدور دوراناً سيئاً. ثمة جذع شجرة في منتصف المنعطف تماماً، مع حيّز قليل باتجاه آخر المنعطف لكن الأوان فات ليراه. فاضطر إلى أن ينزل كي يمر فوقه حاملاً الدرّاجة.

شتم قائلاً: «الحمقى»، وعقب السيجارة بين أسنانه. كان يفكِّر بعمّال المنشرة الذين أضاعوا هذا الجذع دون أن يتعبوا أنفسهم بالنزول من عربتهم ليحمّلوه من جديد. لكنه لم يكن بعد قد عبر إلى الجهة الأخرى ودرّاجته على كتفه، حتى وقع على شخص لم يره لأنه كان مختبئاً خلفه، منبطحاً على بطنه.

راح فينيريو يُقسِم وهو يضرب على الطاولة:

«لم أتعرّف عليه. كيف لي ذلك في هذا الظلام!».

وقبل أن يتّسع له الوقت ليدرك ما الذي يحدث كان منطرحاً أرضاً مشبكاً في الدرّاجة.

قال الصوت:

«أنا لن أقتلك لأنك تقزّزني، لكن هناك مسدساً مصوباً نحوك».

شعر الأشقر، الذي لم يكن شجاعاً إلا عندما يكون بصحبة آخرين، بمعدته تعتصر.

قال الصوت: «اخرج من تحت الدراجة، وقف مقابل العمود».

نفّذ الأمر بسرعة، فتعثّرت قدماه بقضبان الدولاب وهو يحاول الاستعجال. لم يكن هناك بصيص من نور القمر، ولم يكن الصوت إلا شبحاً.

«جعلني أخلع بنطالي. كانت يداي حرتين. لكنني لم أكن أستطيع الحركة لأنه مرّر حبلاً حول خصري». وراح ڤينيريو، المليء بالضغينة، يمرّر يده بعصبية على رأسه الحليق.

تحرّك الصوت عدة أمتار نحو حافة الطريق، وهو يقول: «ابقَ هادئاً ولاتصرخ، سأعود في الحال». عاد ومعه سطل كان يرسل صوت زيت وهو يطفح. عندئذٍ لم يقل الصوت شيئاً: أخذ فرشاة وبدأ يطليه بالقطران مبتدئاً بالشعر.

أخذ الأشقر يتباكى وهو يحاول التنفُّس من أنفه: «إنك تخنقني».

دهنت له الفرشاة طبقة على لسانه كي تسكته. وقام الرجل بسكب الباقي على الأجزاء الأخرى وهو يمسك السطل من الأسفل. ثم ذهب الصوت مع الدرّاجة مرسلاً ثلاث أو أربع رنّات صغيرة كي يستهزئ به، بينما راح يبتعد وهو يصفِّر على الطريق الرئيسية.

حبس ميلشيور ابتسامة، ورفع يده إلى فمه متظاهراً بأنه يتثاءب. كان يعرف جيداً من الذي فعل ذلك، لكنه لم يرغب بقوله. شعر هذه المرة أن ذلك لم يكن بسبب الخوف، وهنّأ نفسه على هذا.

24. «أشنيّات الملكة لوانا»

كان لميلشيور شيئان يدافع عنهما: عقيدته الكاثوليكية، وممتلكاته في فاتوريا فيتشيا، التي يشعر أنه شريك في ملكيتها بفضل نَسَبه إلى المديرين. لكنه أصبح فاشياً، ليس لأن البولشفيك كفّار ويريدون تدمير المُلْكيّة، بل من أجل إيجاد رفاقٍ لنفسه. وهو يأمل بأن الالتزام السياسي سيعزِّز هذه الحرارة الإنسانية التي تعطيها الصداقة، والتي بحث عنها خلال سنوات دراسته، دون جدوى. ومع ذلك شعر بأنه لم يكن لديه أي شيء مشترك مع هؤلاء الشبّان الفظّين والوقحين، الذين ينظّمون الحملات التأديبية: كان

العنف يرعبه ويغمى عليه عند رؤية الدم. يذهب كل أحد إلى التدريب الرياضي، ويعرق بغزارة في قميصه الأسود. ولم يكن ليخاطر أبداً بالقفز داخل الدولاب، فهو يكتفي برفع الذراعين، والقفز وتدوير الرأس عندما يلزم الأمر. أكثر ما كان يحبُّه في هذا الجو الفاشي، الأغنيات، لأنها تتحدث عن رجالٍ كما يحب هو أن يكون؛ لكنه لم يستطع غناءها، إما لأنه غير قادر على حفظ الكلمات، أو بسبب خجل طبيعي يمنعه من الغناء أمام الناس. كان يفضِّل أن يصفِّر تصفيراً خفيفاً عندما يعود إلى منزله على درّاجته النارية، واضعاً نظارته الكبيرة التي تحميه من الغبار والذبابات الصغيرة. في تلك الهنيهات كان يشعر بأنه فخور باختياره، وربما سعيد أيضاً. كان يسير على الطريق الواسع الأبيض الذي يقود مباشرة إلى الفاتوريا، والأشجار تتتابع في رتلٍ، بحفيفٍ على الجانبين، وتجعله الدراجة النارية يفقد هذا الإحساس بالجاذبية التي يشعر بها عندما تكون قدماه على الأرض. يبدأ بالصفير، ثم يزيد السرعة عند بداية المنعطفات؛ كان يحلم بأفريقيا وبالصحارى التي يعرفها من خلال الروايات والرسوم: أشجار النخيل، ومساحات الرمل المذهَّب، والقصور التي تسكنها ملكات غامضات، يدعوهن للطعام على صوت صنوج من البرونز، ثم الكنوز المخبَّأة في الكهوف والغابات المليئة بالمغامرات. كان يكتب سراً نصوصاً غريبة جداً، نشر منها حلقة أو حلقتين في طبعة يوم الأحد من «لاتريبونا ديلا ريڤييرا»، تحت اسم مستعار «ملشي». خلفية الموضوع، سيرة ذاتية بطلها «إيتالو فيررو»، وهو عالِم إيطالي شاب. كان إيتالو قد وجد، وهو يفتِّش في السقيفة، في الحقائب القديمة للعائلة، الأوراق والمذكرات الشخصية لواحد من أجداده، وهو مكتشف مقدام لأفريقيا الجنوبية. هكذا علم مندهشاً أن قبيلة غامضة في الصحراء تداوي مرضى العطش المزمن بأشنيات نادرة جداً تنمو في التعرُّجات الوعرة لهذه الجبال غير المضيافة. كان إيتالو قد أبحر إلى أفريقيا الغامضة،

متصوّراً إمكانية استخلاص إكسير ثمين من هذا النبات. توقّفت الحلقة الأولى هنا، تاركة المجال للتنبؤ بمغامرات خيالية. ثم تبدأ الحلقة الثانية مع سفر إيتالو عبر الأطلسي، ومطاردته من قِبَل رجال الملكة لوانا، المرأة الدموية بهيّة الطلعة التي حاولت، بعد أن سجنَتْهُ، أن تجعله يتكلّم وهي تغريه بسحرها. يصف القسمُ المركزي للقصة انتصارَ إيتالو، فبعد أن نجح في الفرار، بفضل إخلاص العبْدة نوبيا، لم يتمكن فقط من استخلاص دواء ثمين ضد مرض السكر من الأشنيات، لكنه أيضاً نقل أنوار حضارة روما لهذا الشعب المضطهد لطغيان ملكته. ونهاية النص، التي يعتبرها ميلشيور الجزء الأكثر نجاحاً، مع أنها منسوخة عن ملحمة «الإنيادة»(*)، كانت تصف انتحار لوانا بعد أن نبذها شعبها وأهينت في حبِّها، حرقت نفسها حيّة على محرقة من الخشب العطري، بينما راح زلزال توراتي يهزّ قصرها لكي يَبيدَ معها.

بفضل هذا النص المنشور على حلقات ربح ميلشيور ميدالية فضية مزيّنة بمركبين شراعيين ورزمة من حوامل فؤوس، وضَعَتْها مجلةُ «لاتريبونا ديلا ريڤييرا» كجائزة. راح يكتب الآن حلقة ثالثة، حيث يعيش إيتالو حالة شجار مع قبيلة من الزنوج القصار الشهوانيين الذين يذهبون إلى الشاطئ لخطف الفتيات الشابات البيضاوات، ليضحّوا بهن في سبيل آلهتهم المصنوعة من الحجر. وأخذ ميلشيور يخطط، بعد أن ينتهي من كتابة هذا النص الأخير، للخروج من الخفاء، وجمع القصص الثلاث في مجلّد واحد، سيعطيه عنوانَ القصة التي يحبُّها أكثر: «أشنيّات الملكة لوانا». أية مفاجأة لأسمراء، وأي تقدير بين رفاقه! كانوا يقدِّرونه في «الاتحاد» لأنه مهندس الفاتوريا ڤيتشيا، وأيضاً لمسلكه. يتكلّم قليلاً، يعلن أفكاراً غير شخصية لكنها قاطعة، يتفحّص الأمور من علٍ، وتلك هي الطريقة

(*) الإنيادة (شعر ملحمي لفرجيل، من 12 أغنية (29 – 12 ق.م.): ملحمة وطنية تحكي توطد الطروادين في إيطاليا وتعلن تأسيس روما).

المثلى لإثارة الاحترام. من الآن وصاعداً تَعَلَّم ميلشيور تحويل خجله الماضي وخوفه من الناس لصالحه.

25. أفكّر بكِ وأحبكِ

كتبت أسمرا على البطاقة التي أعطاها إياها غاڤور والمزيِّنة بورورٍ برقيةٍ: «هنا أيضاً يوجد بعض التقدُّم. ربما تعتقد أنك اكتشفت «البيرو؟» أخرج يوم الأحد مع صديقاتي، وأقومُ بجولةٍ حتى الساحة. استؤنِفت الأعمال في المسرح. سيطلقون عليه اسم «سبلنديد» (أي المبجل). فتح غاڤور كشكاً إلى جانب النصب تماماً، يبيع فيه الصحف، والمثلّجات والبطاقات البريدية، ويقوم بأعمال رابحة. لقد عرض عليَّ أحدهم الزواج، لكنني لم آخذ العرض بعين الاعتبار لأنني أنتظرك، والويلَ لك: أسمرا».

تلقّت بالمقابل بطاقة بريدية خضراء، تمثّل قطيعاً من الخيول. كان غاريبالدو يدعوها سينيوريتا ويقول: «أفكّرُ بكِ و أحبكِ».

26. قليل من البحر

طَلَت إسبيريا، في وحدتها، جدران منزلها بالأزرق. كانت تهيم وقدماها عاريتان، كما على شاطئ محبوس، وتحدِّق بكآبة إلى أفق الزوايا.

27. ثلاث تنجيمات لاثنين

ذهبت أسمرا لرؤية زلميرا كي تتنبّأ لها بطالعها.

قالت زلميرا: «عودي في ليلة مقمرة».

عادت أسمرا. أخذت زلميرا قصعةً من النخالة. أجلستها وظهرها للوراء. بقيت فترة طويلة تصنع إشارات فوق النخالة تاركةً إياها تنساب من بين أصابعها وهي تدوِّر الصحن.

قالت: «ثمة قَدَران مختلفان، لكنني لا أستطيع أن أقول لكِ أيهما ستختارين.

ـ أريد أن أعرفهما كليهما.

ـ الأول، هو أنكِ ستموتين عذراء.

ـ والثاني؟

ـ الثاني، هو أنكِ ستلدين ابناً يموت في سن الثلاثين.

ـ اقرئي أيضاً طالع غاريبالدو».

قالت زلميرا: «إنه بعيد جداً، لن يكون هذا عدلاً. ثم إنه ينتمي لعائلةٍ الوقت فيها غير منتظم».

قالت أسمرا: «سأساعدك في التفكير به».

مرّرت زلميرا ملعقة خشبية في النخالة وعادت تُقلِّب فيها من جديد. شكّل الرماد مخروطاً، في وسطه حفرة، وكان أحداً يصفر بداخله.

قالت زلميرا: «سيموت غاريبالدو في سن الثلاثين، مثل جدّه ووالده وابنه».

تركت لها أسمرا زجاجة زيت وأسرعت نحو الباب. «يا إلهي، كيف هذا، بما أن عمره أصبح ثلاثين منذ خمسة أعوام!».

قالت زلميرا: «ماذا تريدين، هذا ما يقوله الطالع حقاً».

28. الفم مليء بالحصى

عاد غيدو اليدين ذات ليلة في العربة لأنه نجح من كثرة ما أعطى وتلقّى من لكمات في جمع بعض النقود. كان يرتدي بذلة بمربعات، خَضَرية جداً، تنذر بالتمزق عند الكتفين. اشتراها قبل عدة أشهر، خلال معمعة التدريب، وفي ذاك الوقت كانت تقريباً عريضةً عليه جداً. لكن بضعة أسابيع من البطالة بدت كافية لظهور

هذه المشكلة الثيابية، حيث سمن، كما يمكن أن يسمن شخص سمين مثل غيدو البدين: كان يشبه عجلاً. نزل في الساحة، ألقى نظرة على ما حوله، ولم يحبّ إطلاقاً الجو السائد ونظرات المجهولين الذين يتسكّعون أمام المقهى. عجيبٌ جداً. اجتاز الساحة من غير أن يهتم بأحد، دار خلف الكنيسة وسار على طول مصنع الآجُر. طرق باب منزل غاڤور وهو يتوقع أن يُدْعَى إلى العشاء، لكن المنزل كان غارقاً في الظلام. طرق الباب من جديد.

بعد عدة دقائق، سمع: «من هذا؟

- إنه غيدو البدين».

دخل غيدو البدين إلى مطبخٍ يبدو غير مسكون بأفرانه المطفأة وعانق غاڤور في الظلام، وهو يرفعه عن الأرض.

«أيتها السيدة العذراء، مرَّ وقت طويل جداً».

لكن، من الآن، لم يعد غيدو البدين قادراً على الكلام أمام الخبز والإجاص اللذين أُخْرِجا على عجل.

استطاع أن يسأل بعد أن ابتلع اللُّقمة الأولى: «ولكن ما كل هذه الاحتياطات؟».

قال له غاڤور: «إحْكِ أنتَ أولاً، وبعد ذلك سأشرح لك كل شيء».

وتكلّم غيدو البدين، بصوتٍ أسنانٍ تتصادم، عن ذاك الياباني، الذي كان يستخدم جبينه عوضاً عن القتال بذراعيه، والذي بضربةٍ من رأسه هدم مستقبله.

«أشعر بأن فمي مليء بالحصى، ألا ترى هذا؟» ورفع شفتيه بأصابعه، كما يفعلون مع الخيول ليريه الأسنان التي بقيت له، صفراء ومترنّحة.

29. ربما كابيريا

كانت بورغو آخذة بالتحول إلى مدينة. وكان العمل جارياً في

المسرح دون توقُّف؛ اكتملت الواجهة تماماً، مع المثلث الكلاسيكي الحديث و «ڤيكتوار ساموتراس» الذي يشير إلى الإسم المكتوب بالجص: «سبلنديد». كان يقال بأنه يجب أن يُفتح بمناسبة الكرنڤال القادم بعَرْض «بلاد الأجراس الصغيرة»، وربما بفيلم: كابيريا[20]. إلى جانب باب الدخول الذي تَسدُّهُ طاولتان كبيرتان متصالبتان، يمكن رؤية الإعلان الذي يمثّل امرأة ترتدي الثياب البيضاء، حيث يداها معقودتان وعيناها جاحظتان على خلفيّة مدينة تحترق.

إلى جانب الساحة حيث يُشَاهد ظهرا غاريبالدي والملك، أقام غاڤور كشكاً من أسلاك النحاس الأزرق الفاتح، أطرافه مسنَّنة. كان مرفوعاً على دكّةٍ يصل بفضلها إلى مستوى زبائنه الذين يظهرون من الكوّة ليطلبوا منه الجريدة. عندما ذهبت أسمرا إليه في صباح يوم كانوا يحتفلون فيه بأحد أعياد النظام الجديد، أشار إليها غاڤور إشارة غريبة وهو يبحث داخل رزمة الصحف. قدّم لها بطاقة بريدية أخرى مع زهرتين على زاوية اللازقية التي تقول «أفكّر فيك»، وتمتم:

«أرسلي سلامي إلى غاريبالدو عندما تكتبين له».

ثم نظر من حوله بحذرٍ وأعطاها مغلّفاً أصفر كبير الحجم.

«افتحيه حين تصبحين في منزلك، وبعد أن تقرئيه، أرسليه إلى غاريبالدو».

تلقى غاريبالدو في بوينس آيريس عشرة أعداد من جريدة سرّية. كُتِب فيها، في وسط الصفحة، أن الشعب لن يترك نفسه يُخْنَق في شرك الديكتاتورية، وأنه يتحضّر للهجوم المعاكس. ولُصِقَت على الجرائد رسالة صغيرة بقلم رصاص:

«أنت تتحدّث عن رحلة ذهاب وإياب. أصبح ينتمي إلى الزمن الماضي هذا الذهاب والإياب. عادت أمكَ من جديد إلى الطفولة، وتقول إنّ شعلاتٍ من نار تشتعل فوق أصابعها. نحن هنا نفعل كل

ما بوسعنا. إنما ابقَ هناك قدر ما تريد، على أية حال إن قراءة الطالع أمرٌ مرتبط بي، وسِيَّان عندي أن أموت عذراء. سينيوريتا لا أهمية لذلك».

30. الشعلات الصغيرة تنطفئ

فهمت إسبيريا تماماً أن ليلتها الأخيرة قد حانت. وتأكد حدسها بالبومة التي جاءت وحطّت على المدفأة: وبما أنها الشخص الوحيد في المنزل، فهذا النذير لم يكن إلا لها. ارتدت ملابسها بعناية حتى لاتُتْعِب زلميرا كثيراً، وعقدت عقدة أخرى في شريط صليب الحرب حتى لاينفك حين يرفعوها لحظةً وضعِها في التابوت. ثم فتحت النافذة كي تُدخِل الليلَ إلى الغرفة، وتمدّدت على السرير. بدأت شعلات أصابعها الصغيرة تنطفئ كأن غاز الاشتعال ينتهي.

وبعد شهر من ذلك ولدى عودة غاريبالدو من جولة، علم بذلك في نزل «ڤيزوڤيو»، في بوينس آيريس، الذي ترك فيه عنوانه.

كتبت زلميرا: «ماتتْ بصيتِ القداسة»، مع تكاليف الشحن على حساب المتلقي.

31. حقيبتان من الأغطية

أعلن غاريبالدو عن نفسه لأسمرا بوساطة أكورديون، راح يفتح منفاخَهُ على العلامات الموسيقية الأولى لتانغو ڤاتِل. اندفعت إلى الخارج مثل مجنونة دون أن تكترث بالدوس على شجر الورد. تبادلا القبل حتى انقطاع النَفَس وهما يضغطان الأكورديون.

قالت عندما انفكت عنه: «عندي حقيبتان من الأغطية».

بقي غاريبالدو للعشاء كي ينهي روايته عن الأرجنتين. كانت العمة، عند نهاية الطاولة، تحلّق في صممها وهي تهزّ رأسها. وبدت وجبة لانهائية: لقمة، جملة، وهكذا دواليك.

راحت العمة تقول: «كُلْ أيها الشاب، وإلا سيبرد الطعام».

أكثر فترة كانت روايتها شائكة عليه هي جولَتُهُ في روزاريو، كسائقٍ لفرقة مسرح المنوّعات الفرنسية، التي اضطر خلالها أن يحل محل المغنّي الذي أصيب بالتهاب الحلق.

دمدمت أسمرا: «من يدري كم مرة خدعتني.

ـ هيا إذن، لم أفعل سوى تعلُّم الموسيقى». وعزف قطعة موسيقية صعبة الأداء، رقصة المازوركا(*). كان يود البقاء خلال الليل، لكن أسمرا اصطحبته حتى البوابة.

توسّلَ غاريبالدو: «لم نعد أولاداً صغاراً».

ردّت أسمرا لتقطع الحديث: «يجب أن أحبط طالعاً.

ـ لكن أي طالع؟».

قالت وهي تدفعه إلى الخارج: «كن صبوراً».

تبادلا القبل عند البوابة سنتين أُخريين. كان غاريبالدو يعمل خلالها سائقاً في المؤسسة الزراعية للفاتوريا ڤيتشيا، ينقل الخضار التي يأخذها إلى الأسواق وعقدة السكة الحديد. وكان يأخذ أسمرا إلى «الصقر الراقص»، في الشارع الرئيسي، حيث يتباهيان برقصات تانغو تجعلهما يتصببان عرقاً ويصفِّق لها الجمهور كثيراً. وفي شهر تموز كانا يتنقّلان، في فترة الدَرْس، من بيدر إلى آخر، ويعزف غاريبالدو على الأكورديون. كان يعزف أغاني العيد وألحاناً راقصة شهيرة، أما عندما يكون المكان أميناً فيعزف «الوداع لوغانو الجميلة»[21].

نادراً ما كانا يلتقيان مع غافور في المساء. يأتي أحياناً إلى منزل أسمرا ليأكل قليلاً ويناقش، لكنه لم يعد إطلاقاً كالسابق حيث فقد حماسه وغضبه. بات حذراً، يبدو كأنه جالس على جمر،

(*) مازوركا (رقصة بولونية).

ينصرف مسرعاً؛ وإذا ما مرّت دراجة نارية يندفع نحو النافذة لينظر. أغلب الأحيان كانت دراجة ميلشيور، الذي يمر مُطْلِقاً الغازات من عادم الدراجة إذا ما صادف ورأى الدراجتين على البوابة.

كان غاريبالدو يقول: «غاڤور، إن السياسة تقتلك ببطء».

كان غاڤور يحرك رأسه بضيق، وكأن ذلك مديح. ثم يجلس وعيناه تائهتان في الفراغ، يتآكله شيء لايريد أن يقوله.

كان غاريبالدو يقول:

«إذا ما استمررتم في لعبة الإطالة فلن نكون قريبين من الخروج من هذا المَغاط. مايلزم هو القنابل».

أما غاڤور فكان صامتاً، واثقاً من عمله. وأخيراً، أجاب مساء ليلة:

«هذا أيضاً سيأتي في وقته». كان وجهه حزيناً، وجه مَنْ يعرف سلفاً كيف ستسير الأمور.

وأضاف: «نحن آخذون في الاستعداد، تعال معنا وسترى».

قال غاريبالدو: «آه، هذا لا، أنا لاأخاطر بالذهاب. أحب أن أتصرّف على هواي، لست بحاجة إلى أسياد آخرين».

لم يجب غاڤور، وذهب برزانة ولم يعد إلى الموضوع. كانت أسمرا غاضبة تضرب الأطباق ولا تقول كلمة.

قال غاريبالدو: «ماذا، مابالكِ؟ مابالكِ؟».

أجابت أسمرا: «ما كان ينبغي أن تقول ذلك. ليس لغاڤور أسياد وتَذَكَّر أنه عندما تكون وحيداً تبقى وحيداً. لاتستطيع بمفردك أن تفعل شيئاً، لاشيء البتة».

قال لها غاريبالدو: «اهدئي. ماذا تستطيعين أن تفهمي في هذه الأمور؟».

شحبت أسمرا، ودفعته إلى الخارج:

«هيا، أسعِدْني وانصرفْ، لأنني لم أعد أستطيع أن أتحمّلك هذا المساء إطلاقاً. تظن نفسك ذكياً لأنك تبول على الجدران».

بدأ غافور يكفّ عن المجيء وبات غاريبالدو حزيناً لذلك، لكنه لايقول شيئاً بسبب كبريائه. عندما يمر أمام الكشك كان يسلّم عليه بعبارة عابرة: «سوف تنال منهم!».

أو يذهبَ لشراء الجريدة أيضاً. فكان الاثنان يدّعيان الكبرياء لكنهما يودّان القول: «إذاً، متى سنلتقي؟»

ولم يقولا ذلك.

32. تغيير آخر

وصلوا في سيّارتين، وهم يغنّون «جيوفينيتزا»[22]. كانوا حوالى عشرة زقاقّيين بقبعات شرطة لها شرّابة، وشارة جمجمة على خلفية الياقة. مرّروا حبالاً حول نصب الملك الذي انهار على الأرض عند الهزة الأولى داخل غيمة من الغبار دون أدنى مقاومة. وظهر غاريبالدي بضع ليالٍ كأنه يقدّم إيطاليا إلى دكان الحلّاق المواجه.

بعد عدة أسابيع صدر إعلان عن «الاتحاد» يدين حركة «مخرِّبي الآثار المجهولين» ويقترح استبدال التمثال المزال. وصل بالقطار بعد ذلك صندوق ضخم كُتِب عليه «سريع العطب»، طويل مثل نعش فُتِح بحضور محافظ المدينة[23].

كان الدوتشي يرفع ذقنه، صدره-عارٍ، يعتمر قبعة، حتى ليقال أن غاريبالدي كان يقدّم له خدمة كبيرة وهو يهديه إيطاليا.

33. إمبراطورية على طوابع البريد

ورث بعض الأطفال الذين ولدوا في ذلك العصر اسم ماكاليه[24]. وكانت طوابع البريد تصف امبراطوريات خيالية.

كان ميلشيور يدندن: «مسلحاً ببندقية قصيرة ومدية، سأذهب إلى أفريقيا الشرقية...».

اعتاد ميلشيور أن يأتي كل يوم سبت؛ يصل مرتدياً بدلته البيضاء لأن الزي الرسمي الاتحادي[25] بَدا له مُخلاً باللياقة. يطرق الباب بخجل بضربات صغيرة يخفِّفها في كل مرة أكثر بسبب الشحم المرضي في أصابعه. يعلّق قبعته على باب المدخل من الداخل، ويجلس على حافة الكرسي ليناجي نفسه مع العمَّة التي كانت جدرانُ طرشها تحميها. يشم سيجاره، وعيناه في الفراغ، متابعاً أسمرا وهي تطرِّز على الطارة. كان الصمت كبيراً حتى أنه بالمستطاع سماع الإبرة التي تخترق القماش المشدود مثل غشاء. كان يحاول أغلب الأحيان أن يصفِّر ألحاناً عسكرية صغيرة تتحوَّل على شفتيه إلى ألحان ضعيفة الإلهام وحزينة. ترميه أسمرا بنظرة قاطعة فيخبو الصفير الخفيف لانقطاع نَفَسه.

«أنتِ لاتفهمين، علينا أن نغزو الشاطئ الرابع».

كانت يداه الدبقتان تتعلَّقان بيأس بالسيجار الذي تليِّنانه.

فتردّ أسمرا: «لماذا لاتذهب أنت أيضاً إلى أفريقيا بدل أن تأتي لتتسكَّع هنا».

بدا السيجار منتفخاً بالعَرَق، وورقة التبغ التي تغلِّفه تنفصل عنه حلزونياً. وراح ميلشيور ينظر إلى رأس حذائه، ثائراً.

«لم أستطع، بسبب مرض السُّكر».

عندئذٍ كان على أسمرا أن تسمعه يتكلَّم عن صورٍ عديدة لأفريقيا عُرِفت من خلال الدعاية: الشاي والموز، الشاطئ الرابع، الشلالات الكبيرة، الحضارة الرومانية. إنها تود أن تطرده خارجاً لكنها لم تملك الشجاعة، ولم يكن ذلك فقط خوفاً من ثأر يقع ضد شخص غاريبالدو.

كانت زلميرا تأتي بعض الأحيان في السهرة مغلَّفة بشرنقةٍ من

السنين التي تحميها من الموت. صوتها فقط هو الذي بقي لها من شبابها، وباتت تقتصد فيه، مفضِّلة اللجوء إلى استخدام الإشارات. كانت تحضر قصعة الزيت وترمي بالسحر المؤذي ضد الفاشيست في صمت السهرة.

«اللعنة، اللعنة».

كثيراً ما راحت ترميهم بمصائر سيئة، حتى بات ينبغي للوباء أن يقضي عليهم جميعاً بين ليلة وضحاها.

كانت أسمرا تقول لها: «عليكِ بالأحرى أن تركِّزي على رئيس العصابة.

ـ ذاك تلزمه أنشوطة متحرِّكة حول رقبته، وليس شيئاً آخرا». وتضحك زلميرا بملء فيها.

34. غوادالاخارا

عظَّمت الصحف «حدأة الباليار»[27]، الذي كان يحلِّق بين أسراب طائرات الحمر، ويتجنب رشقات الرشاشات، وينعطف فجأة لمهاجمتهم من الخلف: لم يعد للحمر ما يفعلونه.

كانت أسمرا تقول: «سوف لن ينجو».

تلقى غاريبالدو رسالة عن طريق مرسيليا قادمة من غوادالاخارا، وليست مؤرَّخة: مونتيرو *الأول تَمَّ حدُّ سكينهِ. لن يمروا*[*]. مونتيرو *الثاني*.

عندئذٍ قرَّر غاريبالدو جازماً، وذهب مباشرة إلى غافور. وجده في كشكه مثل العادة. فقال له:

«غافور، لننتهِ من هذه التصرُّفات الصبيانية. أنا راحل، لم أعد أطيق البقاء هنا إطلاقاً».

وأطلعه على رسالته.

(*) جاءت العبارة بالاسبانية وكانت شعاراً عند الثوار الإسبان ضد الفاشية.

كان وجه غافور مستسلماً فيما هو يُنزِل ستار الكشك رافعاً نفسه على رؤوس أصابعه. وقال: «أين تريد أن تذهب؟ هذه الرسالة قديمة، سقطت برشلونة أمس. إذا كنت لاتصدّق ما تقوله الصحف الفاشية، انظر إلى هذه».

وفتح صحيفة حقيقية سحبها من تحت سترته. كان في وسط الساحة، والناس يمرُّون.

قال غاريبالدو: «أغلق هذه الصحيفة، لو رأوها بين يديك سيسلخون جلدك».

قال غافور: «وماذا يهمني!».

35. يحتاج الأمر للإرادة

قال غاريبالدو: «يعرف أحدنا الآخر منذ عشرين سنة، ونحن مخطوبان منذ خمس عشرة سنة. هل تريدين أن نشيخ هكذا؟».

كان هذا موضوعاً تتحاشاه أسمرا أو تخشاه.

كانت تقول: «لدي مبادئي، واحذر أن تهينني».

لم يكن غاريبالدو يريد إهانتها: لكن كان بإمكانهما أن يتزوجا، ماذا يعني هذا، أن يسهرا مساءً حول المائدة مثل مراهقين!

كانت أسمرا تجيب: «يجب أخذ الوقت الكافي لنتعارف جيداً، وإلّا ساءت الزيجة».

وإلاً: «حبات الملبّس في يوم العرس، العيوب في اليوم التالي.

- إذا لم تجدي عيوبي في عشرين سنة، فهذا يعني أنكِ لن تجديها أبداً، لأنني سئمت من هذا الموّال. سآخذ كل ما أملك وأرحل».

ترنّحت أسمرا من الخوف. فهي تعرف طينة غاريبالدو: فهو، إذا ما أصابته نزوة قادر على ترك كل شيء هنا والرحيل. تلك هي طينته.

قالت أسمرا: «إذا لم أتزوجكَ الآن فلأن لديَّ أسبابي. لذا يجب أن يكون لديك قليل من الصبر، فقط القليل، لأن اللحظة تقترب. وجدتُ طريقة.

ـ طريقة لماذا؟ هل ستشرحين ألغازك الرمزية؟».

قالت أسمرا: «طريقة. طريقة. سترى، سترى. يحتاج الأمر للإرادة».

وصرفته بنعومة، وهي متأكّدة من أنه سينتظر.

36. المحبة لا تسقط أبداً

«أيها الأخوة، ألعلّ الجميع معلمون. ألعلّ الجميع أصحاب قوّات. ألعلّ للجميع مواهب شفاء. ألعل الجميع يتكلمون بالسنة. ألعلّ الجميع يترجمون. ولكن جدّوا للمواهب الحسنى. وأيضاً أريكم طريقاً أفضل. إن كنت أتكلم بالسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطنُّ أو صنجاً يرنُّ. وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً. وإن أطعمت كل أموالي وإن سلّمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً. المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد. المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبداً».

توقّف دون ميلڤيو عن القراءة ونظر من النافذة. كان هذا هو النص الذي جهّزه لعظته القادمة يوم الأحد: الرسالة الأولى للقديس بولس للكورنثيين. فكّر وهو ينظر إلى الكلاب الضّالة التي تركض في ساحة الكنيسة، وظن أن عدد أشهر السنة في بورغو أقل بكثير من العدد الطبيعي. بدا له أنه في الشتاء الماضي فقط اخترع آلته

الهيدروليكية للمساواة، وأنه وقف بحيوية اليأس إلى النافذة لينادي غاريبالدو. لكن أربعين سنة تقريباً قد مرّت، وحلّت العدالة محل المساواة كعملية تحسين تمّت في اللحظة الأخيرة، ومات شخص آخر بالعنف والتنكيد مقتولاً بضربات العصي.

مزّق دون ميلقيو، إلى قصاصات صغيرة جداً، الورقةَ التي دُوِّنت عليها رسالة القديس بولس، ورماها من النافذة، وتسلّى برؤيتها تتطاير في الهواء مثل النِثار. أخذ يتساءل بانزعاج، وبيأس تقريباً، بماذا كان بإمكانه أن يستبدلها. فكّر وفكّر من جديد، ولم يجد شيئاً. عندئذٍ قرّر أنه سيبقى أخرس، نعم، أخرس تماماً.

37. طرطقة وداع

كانت ليلة مليئة بصرّارات الليل، مضاءة بقمرٍ محتقن، ينبئ بحرارة شديدة. نهض غاريبالدو بالسروال الداخلي وملاقط صغيرة بيده، وفتح الباب للتأوهات التي احتكت به مرّات عديدة. لم تكن سوى أسمَرا، ولم تكن تستطيع البكاء: كان صوتها مختنقاً.

«ضرب الفاشيست غافور».

اضطر أن يسحبها إلى الداخل، وكأنّما بعد أن سلّمت رسالتها يتوقف واجبها هنا، وبات بوسعها أخيراً أن تتحجّر كما تشتهي.

«أوضحي، ما الذي حدث؟».

أخذوه إلى المستنقعات المنخفضة المجفّفة ليضربوه حتى يسيل دمه، ورمته سيارة عند المساء فوق الساحة فاقداً الوعي. لم يتحمّل الضرب بسبب تكوينه الجسدي الضعيف. كان يُحتضر.

«يرفض الطبيبُ أن يتحرّك من منزله، يقول إنه مصاب بالحمّى. رأته زلميرا وهي تقول بأنه لن يعيش طويلاً. إنه يطلبك من خلال حشرجاته».

خرج غاريبالدو على دراجته في الليل. كان العجوزان يبكيان

ورأساهما مستندان إلى الطاولة. وبدت زلميرا متقوقعة على كرسي منخفض تتلو صلوات بأصوات مصفِّرة، بسبب نابيها اليتيمين. دخل إلى ظلمة الغرفة وأخلى لنفسه مكاناً في ضباب العرق البارد الذي يغلّف رموش غاڤور. قرّب أذنه من الفم نصف المفتوح ليفهم معنى الحشرجات. فكانت لغاڤور ابتسامة ساخرة، أو تكشيرة تقريباً، وكأنه يقول:

«الخدمة الوحيدة التي كان بإمكانهم تقديمها لي لم يستطيعوا حتى القيام بها».

نظر إليه غاريبالدو نظرةً متسائلة. مرَّ الوقت وحل الليل الآن بينما الشعلة تخبو. رفع غاڤور يداً بصعوبةٍ وشق الهواء براحة يده.

«أَنْهِضْني».

انتظر غاريبالدو موته وهو يمسك بيده مع الوعد الضمني الذي قطعه. نزل إلى بيت الدرج وأخذ مطراقاً. ثم قال للعجوزين: «لاتصعدا إلى فوق. هذه خدمة طلبها مني وحدي فقط».

وضعه على بطنه. لم يكن غاڤور أثقل مِن فلّينة. وفضّل أن يعمل تلمُّساً دون أن يعيد إشعال المصباح الذي انطفأ. غلّف المطراق بغطاء كي لايجرحه، وضرب الضربة وهو ينظر من خلال النافذة إلى القمر الذي راح يغيب خلف الدير. انتصب غاڤور بطقة مخنوقة، فتح صدره ومدَّ ذراعيه. أصبح طويلاً.

قبّله على جبينه وهو يضعه على وسادة.

38. مئة نسخة

تابع عامل المطبعة اللّعب بالمكعبات الرصاصية الصغيرة، وكأن هذه المناقشة لاتخصّه.

«هنا لانصنع إلا الملصقات التي حصلت على تصريح، أيها الشاب. إنك تسمح لنفسك بالتلميح».

قال غاريبالدو: «اسمع، الكلمات الجميلة لاتفيد في شيء. فوريتي قتلوه ليلة أمس ركلاً بالأقدام على وجهه».

أجاب ومقدِّم خوذته ينزل أمام وجهه: «أنا آسف. لكن، إذا كان ذلك لأسباب سياسية فلن تجدها هنا. لم يكن يأتي إلى هنا إلا للعمل».

أمسكه غاريبالدو من رقبته ورفعه عن مقعده الخفيض، وصرخ قائلاً:

«أنا أعرف ماذا كان يعمل أيها الأبله! وتوقَّف عن السخرية مني لأنني لم آتِ إلى هنا للمزاح».

تركه يسقط بكل ثقله وارتدَّت مقدمة الخوذة.

«ماذا تريد؟

ـ صلة الوصل في بلدة بورغو، فأنا الذي سأتولى ذلك ابتداءً من اليوم. الآن اشرح لي ماذا يجب عليَّ أن أفعل: ولاتحدِّثني عن السياسة، لأنه إذا كان لديَّ حساب لأصفِّيه مع أرباب العمل فهو بالأحرى تقليد عائلي أكثر منه اقتناعاً».

نهضت الخوذة وتوجَّهت نحو خزانةٍ يخفي قاعُها باباً قلّاباً. نزلا إلى قبوٍ بوساطة سلّم صغير. قال صاحب الخوذة وهو يُظْهر تلّةً من الصحف:

«هاهي. توجد لكَ خمسون منها».

قال غاريبالدو: «أستطيع أن أحمل ضعفها».

كشَّر صاحب الخوذة.

«لاتحاول أن تتشاطَر لليوم الأول. إبدأ بالتعلُّم فهي بضاعة تنفق بشكل سيء. كان فوريتي يوزِّعها من الكشك ذاته وأنت عليك أن تحملها إلى منزلك».

سأل غاريبالدو: «والأسماء؟».

انخفض صاحب الخوذة من جديد وقال بصوتٍ أبحّ:

«قل إذاً، أيها الشاب، ألا تريد أيضاً مكبّراً للصوت لتقوم بالدعاية في الساحة؟ هيا اذهب وتدبّر أمرك، أنت لاتبدو غبياً».

وفي اللحظة التي كان سيخرج فيها ناداه صاحب الخوذة من جديد حاملاً بيده مكعّباً صغيراً من الرّصاص عليه حرف C مكسور في الوسط.

وقال: «يوجد في بورغو صلة وصلٍ أخرى. إذا ما جاء شخص لرؤيتك ومعه الجزء الثاني، فهذا هو. لكنني لا أعلم من هو، ومن الممكن أيضاً ألا يعلن عن نفسه حتى لايتعرّض للمخاطر».

39. الافتتاح بمسرحية هزلية تراجيدية

انتهى سبلنديد. عملوا منه سينما ـ مسرح، مع شاشة مركّبة في نهاية المسرح، وإكليلين من الزهر والفاكهة المدهونة على الجوانب. كانت الأرضية مصنوعة من الخشب، ومقاعده مرقّمة على المساند بوساطة صفائح معدنية صغيرة من الميناء الأزرق الفاتح تشبه العيون: الأرقام الفردية إلى اليسار، والزوجية إلى اليمين، ثلاثمائة مقعد بمجملها. ويوجد أيضاً ممر محاط بدرابزين من الحديد المطروق. سمعهم يقولون:

«سيكون الافتتاح هذا الأسبوع.

ـ متى؟

ـ يوم كذا».

وراح الناس يتساءلون: ماذا سيقدّمون؟ فيلم، مسرحية؟ وإذا ما كان مسرحاً، فهل ستكون كوميديا، مأساة، مسرحية هزلية؟ لم تكن هناك وسيلة لمعرفة ذلك. بعدئذٍ ظهر الملصق مصفراً قليلاً وزواياه مطوية يُرى فيه «كابيريا» مدوِّراً عينيه.

«سيعرضونه! هذه المرة، سيعرضونه حقيقةً، كابيريا!».

كانت أسمرا، في الليلة الماضية، متأثِّرة جداً. كانت تطرِّز بسرعة ياقة زرقاء فاتحة تريد أن ترتديها لهذه المناسبة.

قال غاريبالدو: «إنه فيلم فاشي. فيلم فاشي. ماذا ستفعلين هناك؟».

أجابت أسمرا: «أنا أحب السينما كثيراً، ونادراً ماأذهب إليها».

في اليوم التالي كانت الساحة تغص بالناس وكان بينهم أناس قادمون من الخارج، من القرى المجاورة. ومعظمهم كانوا متأنقين، يتحدَّثون عن كل شيء وعن لاشيء. كانت السينما تثير نوعاً من الغبطة. لكن سبلنديد بقي مغلقاً. لقد علَّقوا مكبراً للصوت على عنق «ڤيكتوار سوماتراس»، وبدا أنه بين لحظة وأخرى ستعلن قائلة:

«تمَّ رسمياً افتتاح سينما سبلنديد!».

وعوضاً عن ذلك انطلق صوت ضخم ممطوط، وصمتت الساحة مأخوذة غدراً. كانت الكلمات الأولى:

«يا محاربي الأرض والبحر!»

كان هذا هو العرض الأول لـ سبلنديد كما كان الأخير لأن الحرب قد اندلعت للتو.

40. *القضية أكثر أهمية من الخطيبة*

أمضى سنةً صعبة، مليئة بالعرق البارد والانتفاضات، لكن صلة الوصل لم يظهر. كان بعض الأحيان يخاف من النوم في المنزل ويذهب لينام في مجمع التِبن، حاملاً المسدس ذي طاحونة التلقيم الذي اشتراه في السيرك الفرنسي. وكانت أسمرا تقرأ مخاوفه على وجهه وتسأله بقلق:

«ماذا بك، غاريبالدو؟ حدِّثني، صارحني».

فيجيب غاريبالدو:

«اتركيني وشأني. عندي حموضة في المعدة».

في مساء أحد الأيام، بينما هو عائد إلى المنزل، وجَدَ رسالة صغيرة تحت الباب. فتحها بخوف منتظراً شيئاً لايعرفه إلا الله. إنه صلة الوصل الذي كتب له بحروف مطبعية:

«لا أود أن أعرِّفك بنفسي. السبت القادم اتركْ نصف الجرائد في حديقة أسمرا تحت شجر الورد. التوقيع: صلة وصل بورغو.

قضى أسبوعاً من الغم. هل كان هذا فخاً؟ ثم إن صلة الوصل هذا يبدو أنه يعرفه جيداً، ويعرف أن أسمرا خطيبته. لماذا يختار هذا المكان بالضبط كي يأخذ الإرسالية، بطريقة توقع شخصاً ثالثاً، إذا ما حدث وانكشف أمرهم؟ وقرَّر أنه لن يفعل ذلك.

لكنه في الأسبوع التالي وجد وهو عائد إلى المنزل رسالة صغيرة أيضاً، حاسمة أكثر:

«أيها الأحمق. قمتُ بهذا العمل عشر سنوات مع غافور، وتمَّ هذا دائماً على أحسن مايرام، ثم ها أنت تصل وتسمح لنفسك بألا تفعل إلا على هواك. اترك الجرائد حيث قلت لك، أيها الغبي، واعلم أن القضية أهم بكثير من الخطيبة».

لم يبقَ له سوى الطاعة. على أية حال كان في حالة من عدم الفهم التام: فكَّر لحظة بغيدو البدين، لكن هذا لم يكن ممكناً حقيقة لأنهم أرسلوه إلى روسيا.

41. قبَّعة فوق الباب

«أنتِ تعرفين أين هو ويجب عليكِ أن تقولي لي».

كان ميلشيور هنا، ساقاه متباعدتان على عتبة الباب، يترنَّح مثل رجل ثمل. لكن أسمرا رأت أن ذلك كان بسبب الغضب الشديد، والرغبة والحب اليائس.

قالت أسمرا: «ادخل إذاً، أيها الأحمق».

جلس أول مرة في هذا المنزل المرغوب والمعادي، كصاحب مقامٍ فاشي: قدماه متصالبتان ويده في الصديري.

«أنذرك بأنني لم آتِ كصديق. لقد بلَّغت عن غاريبالدو للسلطات الألمانية. بتهمة التخريب».

جاءت أسمرا ووقفت أمامه وصفعته.

تمتم ميلشيور شاحباً: «أسمرا».

كانت يداه الدبقتان تفتِّشان في قاع جيبه بحثاً عن سيجار منقذ. صفعته أسمرا ثانية وتقوقع ميلشيور وهو يرتجف. شعرت بأنه يضم ساقيها برخاوة وهو يبكي. راح يقول بأن الأمر أصبح فوق طاقته، وأنه أجبره وتمادى، وماذا أصبح شكله هو مع هذه الملصقات فوق التمثال كل يوم هذه التي تصفهم بالقَتَلة، وتهزأ بهم وتحثُّ على العصيان.

قالت أسمرا: «انهض. انهض واذهب من هنا». كانت تحمل مقصَّها في يدها فجعلته يصطفق.

«اذهب من هنا قبل أن أرتكب حماقة، لأنني لا أريد أن أوسِّخ يدي».

نسي ميلشيور قبَّعته على مسمار المدخل.

42. خبز وبيض مقلي

قالت أسمرا كئيبة: «إنهم يبحثون عنكَ. لو أمسكوا بك فسيسلخون جلدك».

أشعل غاريبالدو سيجارة وتوجَّه نظره نحو قمة التل.

قال: «حلمت الأسبوع الماضي بأننا نمارس الحب».

أجابت أسمرا: «عندي شعور بأننا لم نعد بعيدين عن هذا جداً. عندي انفعالات يمكنها أن تعطيك الحق. اصبر قليلاً أيضاً».

أصرّ غاريبالدو: «لكن أين الفرق؟

ـ لدي طالع يجب أن أكسره، لا أستطيع أن أقول لكَ أكثر من هذا».

لم يكن غاريبالدو يتحرّك عن الباب.

«لكن أخيراً، هل ستفهم أنهم يبحثون عنكَ؟

ـ ليجدني أولاد العاهرة. سترين أن هذا سيجعلهم يجنّون».

كالمسعورين بحثوا عنه في القرية كلها، سنتيمتراً سنتيمتراً. كان «الاتحادي» يدور في البلدة بجزمته التي أصبحت مجنونة، ضارباً بكعبيه. قاموا بتهوية أقبيةٍ أغلقَتْها خيوط عنكوبت قديمة جداً، وفتّشوا داخل براميل مليئة بالجرذان، ومزّقوا كل مراتب بورغو: لم يكن غاريبالدو هناك.

كانت أسمرا تذهب لرؤيته كل ليلة. وتضع الزهور أمام صورة كوارتو وتركع لتتكلّم وهي تصلّي.

وكان غاريبالدو يسأل من الجهة الأخرى لشاهدة القبر:

«إذاً، هل من جديد؟

ـ نحن بمفردنا، تحت رحمتهم. إنهم يقومون بغارات علينا، لقد أخذوا كل الرجال. إذا ما وجدوا طبنجة قديمة تعود إلى ما قبل خمسين عاماً يطلقون النار. يأخذونهم إلى المستنقعات الجافة، وبعد أن يقتلوهم يلقون بهم في الحفر. وأنتَ، قل إذاً، كيف حالك؟

ـ أنام جيداً. لايحتل تابوت كوارتو حيّزاً كبيراً. لابد أنهم قد حوّلوه، حقيقةً، إلى قطع صغيرة.

ـ هل عندك شهيّة؟

ـ ماذا أحضرتِ لي؟

ـ خبزاً وبيضاً مقلياً».

بعد أن يهبط الليل كان غاريبالدو يدير الشاهدة، ويُدْخِل يده في باقة الورد ليأخذ الخبز والبيض المقلي.

وإذا لم يكن هناك ضوء قمر كان يسمح لنفسه بالقيام بنزهة صغيرة بين القبور وقضاء حاجاته في الجهة الأخرى من السور. ذات مساء طلب ورقةً وقلماً:

«كيف ستتمكّن من الكتابة؟

ـ لاتقلقي، لديَّ شمعة».

أرسلت أسمرا بالبريد رسالةً موجَّهةً إلى ميلشيور. في الواقع كان غاريبالدو قد فضّل بطاقة بريدية، وهكذا أصبح بإمكان ساعي البريد قراءتها أيضاً وقصّها على البلدة بأكملها.

ابن العاهرة «الاتحادي»
إن لحظة جنازتك
ليست بعيدة.

غاريبالدو

قالت له أسمرا بعد ليلتين: «يبدو أن ميلشيور قد جن».

لقد جن الاتحادي حقاً. كان ممدّداً على السرير، وتحت تأثير الغضب الشديد، انتفخ جسمه ببقع خضراء كأنه ضفدع، بهذا الكرش الضخم.

قالت أسمرا: «علّقوا إشعاراً للسكّان.

ـ إشعار للبحث؟

ـ نعم، ألصقوه على جميع جدران القرية، إنهم يلازمون الألمان، ويلقون القبض على الجميع، حتى الشيوخ».

أحسَّ غاريبالدو بالاختناق في هذه الحجيرة الكتيمة.

تابعت أسمرا: «هناك أنصار[28] في الجبال. لو تذهب معهم فلن يمسك بك الآخرون. لقد عاد غيدو البدين من روسيا مع فتاة من

«فريول». خبّأهما دون ميلڤيو في منزل الكاهن، وسيذهبان هذا المساء لملاقاة الأنصار».

قال غاريبالدو: «وأنا أيضاً ذاهب».

قالت أسمرا: «مرّ عليّ أولاً لتودعني. لكَ عندي مفاجأة».

43. *خمسون كيلو*

تقدّم غيدو البدين، وحذاؤه مغطى بغبار روسي حقيقي كان سيحمله معه إلى منزله لو استطاع الوصول إليه. ربما لكي يتحاشى القدر أو على العكس بسبب لعنة، أو ليحفظ من النسيان وجه جندي روسي لاوطن له: محفوظ بالجليد الذي حوّله إلى زجاج، بحالةٍ ممتازة، وكان هذا الأخير قد وهبه حذاءه مقدّماً له إياه بقدميه المتباعدتين اللتين كانتا موجهتين نحو الغرب، مثل عقربي بوصلة.

توقّف، تأمّل نحافته وفكّر أن باستطاعته الطيران لو خلع حذاءه لاغير، وترك نفسه يسقط سقوطاً حراً على طول الوادي الذي تشير أريكة من الضباب إلى وجوده لكنه لم يفعل هذا: وعوضاً عنه أطلق رشقةً من البول ووجّه إلى الفراغ ابتسامة جوفاء. غيدو البدين الذي يزن خمسين كيلو لم يعد غيدو البدين، لكن الدرب الضيّق الذي كان ينحدر في الثلج، بات الآن هو طريق المنزل، والمدفأة التي تدخّن في الوادي كانت إيطالية.

كانت رجولة غيدو البدين العارية تبرز، بعكس الضوء أمام النار، بشكلٍ قبيح على نحافته.

قالت فتاة فريول وهي خائفة بلذة: «إنه كبير وبحجم ساقيك».

أجاب غيدو البدين الذي أخذ يرتجف تحت الغطاء:

«إن ساقيّ هما النحيفتان».

قالت فتاة فريول: «يمكنك البقاء، ولكن ليس مجاناً.

ـ وبماذا تريدين أن أدفع لكِ؟»

أشارت فتاة فريول إلى السرير.

«أنا أعيش دائماً وحيدة، لايمر أحد من هنا إطلاقاً، وحتى قبل الحرب لم يكن هناك أناس كثيرون، ولكن الآن...».

قال غيدو البدين: «لاأعتقد أنني سأستطيع ذلك، لا أفكّر بهذا، وليس لديَّ القوة لذلك».

قالت الفتاة: «سنرى بعد الأكل».

نسيت رجولة غيدو البدين مع النبيذ والنار، والبرد الروسي والنحافة. وجرّت الفتاة السرير حتى صار أمام المدفأة وتمدّدت ووسادة على صدرها.

قال غيدو البدين: «ماذا تفعلين؟

ـ ستؤلمني بكل هذه الضلوع البارزة».

تمدّد غيدو البدين فوقها، موزّعاً بين وعي الوسادة ورغبته في امرأة.

حاول أن يعترض: «سوف لن أستطيع ذلك».

قالت فتاة فريول ضاحكة وقد نفخت صدرها وضمّته بين ذراعيها: «أصدّق هذا».

في الليلة التي وصلا فيها إلى بورغو وذهبا مباشرة إلى منزل أسمرا كان يجب أن يولد ابنهما بعد ستة أشهر. كان مقدّراً له أن يولد في كوخ أسوأ أيضاً من الكوخ الذي عاشت فيه أمه: كوخ مفتوح على رياح الجبل، جعل منه الأنصار مستودعاً للمؤن.

44. يوم عشب

كانت ليلة مقمرة صافية، يغمر فيها ضوء القمر المتعاون مع العدو المقبرة. وراح غاريبالدو يستعد للخروج عندما سمع صرير بوابة المدخل. لايمكن أن تكون أسمرا عائدة إلى الخلف فهي تمر دائماً من الباب الصغير الجانبي الذي يطل على المقبرة الجماعية، بين السرو والعشب العالي، ومن هناك تأخذ الممر الذي يصل إلى

القرية من الخلف. ألصق عينيه بالفتحة الصغيرة تحت المصباح، لكن حقل الرؤيا بدا دائرة ضيقة تضم الكنائس الخاصة والغرفة الضيّقة حيث الحارس يبيع زهور القرنفل والشموع يوم عيد الموتى. حمل له رخام الممر الأرضي الخاوي صوتَ أقدام أربعة أو خمسة رجال. تحوّل الصوت إلى اهتزاز خفيف جداً يخز الأذن الملصقة على الحجر، وأظلمت الفتحة الصغيرة بجسم قريب جداً منها.

أمر صوت ضابط بلهجة إيطالية سليمة: «هل هذا هو؟».

أجاب صوت ممطوط بلهجة إيطالية عادية:

«هذا هو».

شخر الصوت وبصق بصقة.

شعر غاريبالدو بماء مثلّج ينساب على ظهره وتحت ذراعيه. كان الماء الذي ينزل يشل جسده بالتدريج. حاول تحريك أصابعه لكنها باتت مصابة بالخدر كأنها رخام.

أملى عليه الخوف إيحاءً جليّاً غير مجدٍ.

«هذه فكرة من أفكار ميلشيور. لقد نجح ابن الزانية في التخمين».

قال الصوت الألماني: «هدّ».

انتثر الرخام بفعل ضربة الأخمص الأولى مباشرة إلى أسنان.

قال الصوت الألماني: «أَسْرِع».

كان نثار الضربات المتواتر ينتقل مباشرة من الرخام إلى أسنانه مروراً بالدماغ تماماً كالتفريغات الكهربائية. شعر بالوضوح ذاته، الذي أوحى إليه باسم الواشي، بغضب غير مجدٍ، لفكرة اكتشافه مثل سمكٍ مقدّد وهو غير قادر على تحريك أصبعه الصغير.

فكّر عبثاً: «إنه الضغط العصبي، في الواقع، كنت أنتظرهم كل الليالي».

تسلَّل ضوء المصباح الكهربائي إلى الحفرة السوداء، وأرسل شعاعاً رفيعاً جداً، قَسَم متوازي سطوح القبر إلى قسمين.

قال الصوت: «لايوجد أحد».

قطعت شفرة الصوت الألماني قائلة: «اسحب التابوت خارجاً».

عند ذلك فقط فهم غاريبالدو: كانوا يبحثون في القبر المجاور. ابن العاهرة ميلشيور قد أخطأ، لابد أنه أشار إلى قبر والده. أصبح الماء المثلّج فجأة ساخناً جداً لدرجة أنه غلّفه بغيمة من البخار. سمع الصوت الأصمّ للتابوت الذي كان يسقط على البلاطة، ثم طلقات رشاشٍ متواترة جعلت الخشب يئن.

صاح الصوت الألماني: «إفتح».

حطّمت أخامص البنادق الغطاء.

سأل الصوت الألماني: «أهذا هو؟».

قال صوت آخر: «كلا، هذا ميت منذ زمن طويل».

قال الصوت الممطوط: «الخنزير». ولم يفهم غاريبالدو لمن كانت هذه الكلمة موجّهة.

ذهبوا وهم يطلقون النار على غير هدىً فوق حجارة الممرات، يتسلّون في رؤية لعبة البلياردو الجنائزية للرصاص الذي يتصادم على الرخام. خلع غاريبالدو حذاءه وحرّك شاهدة القبر؛ كان يفضّل السير حافي القدمين لأنه بال فوقها، وكان حذاؤه يصدر صوت طبطبة. كان والده، الذي قتل مرتين، كاملاً: لاديدان ولاتفسُّخ. شعره قد ابيضّ ومايزال يحمل ساعته بيده في حركةٍ لم تستطع الرشاشات حتى أن تفكّها. انزلق غاريبالدو وحذاؤه بيده إلى الخارج من الباب

الجانبي الصغير، ثم دخل في العشب العالي والقاتم. لم يكن يرغب في المرور لرؤية أسمرا، وعلى أية حال كان الضوء ينير البحر. دخل إلى الحقل وتمدّد على الذرة البيضاء، ناظراً إلى السماء التي تبيضّ. إنه بحاجة إلى يوم من العشب بعد الأيام العديدة من الإسمنت.

45. *الغم والإرادة يجعلان المرأة عقيم*

كانت أسمرا تنتظره في قاعة الاستقبال ودفّتا الشبّاك مغلقتان، مرتدية قميص نوم مطرّز. عندما رأته يدخل قفزت: لقد أصبح خلال الشهر الذي قضاه في رطوبة القبر أكثر بياضاً من العادة، حتى ليقال بأنه شبح على رأسه نار.

قالت أسمرا: «كنت أنتظرك الليلة الماضية.

ـ بالأمس مساء لم أتمكن.

ـ لنذهب إلى الغرفة».

كان السرير مفروشاً بأغطية مطرّزة جديدة.

قالت أسمرا: «حان الوقت».

جعلته يفض بكارتها الذابلة على الأغطية المطرّزة، وهي تحبه كواجب منسي، مستسلمة لقرارها الشخصي.

أخيراً عزمت على الكلام.

قالت: «لقد كسرت التنجيم. أنا عجوز».

قال غاريبالدو: «هذا ليس صحيحاً.

ـ إيه نعم، منذ شهر.

ـ وكيف حدث هذا؟».

أجابت أسمرا: «لابد أنه الغم أو قوة الإرادة. لو كنت تعلم كم مرة سألت نفسي كيف العمل لكسر التنجيم».

قال غاريبالدو: «أي تنجيم؟ هل ستقولين لي، في النهاية، ما هي هذه القصة؟».

ردّت أسمرا: «من الآن فصاعداً، لم يعد لذلك أهمية». انسَ الموضوع، إنه من الماضي».

رافقته حتى البوّابة، مثل الأيام الماضية.

46. الجرس يذوب

صنع رجالُ الـ SS(*) الجحيم، كما وصَفَهُ دون ميلڤيو دائماً من أعلى منبره، يوم الأحد: جدار من النيران المدمِّرة، المفرقعة، المليئة بالعويل، لكنهم صنعوه بطريقة اصطناعية، بالبنزين، ووضعوه في الكنيسة. وكانت الفرقعات هي رشقات الرشاشات التي تلقي النار على النار.

كان الوقت مساءً عند هبوط الليل. انتشر رجال الـ SS على شكل مروحة، اثنين اثنين عند كل طريق. كانت بورغو غارقة في الصمت، وأصبحت داكنة تحت هذه الصرخات الغريبة. راحت الجزمات تتوقّف على العتبات، تضرب الأبواب بأخامص البنادق، وتخرق مراتب التبن. «لايوجد رجال، ليسوا هنا». كانت النساء تفتح أذرعها إشارة للنفي. إنهم في الجبال.

قادتهم فوّهات البنادق حتى الساحة. كنَّ حشداً حيث تسحب النساء أولادهن خلفهُن.

قالت نيرينا التي لديها ولد أعرج:

«أيّها النساء، من الأفضل عدم البكاء. هؤلاء الناس لايتحمّلون الدموع، إذا بكينا فسيقتلوننا».

(*) SS (الشرطة السرية الفاشية).

تشجّعن وهن حول التمثال، الكتف على الكتف، واستمعن إلى البلاغ النهائي للضابط الذي كان يريد أن يعرف كل شيء لايعرِفْنَه.

«من تريد التحدّث باسم الجميع؟».

ضعف الهرج.

«حسنٌ». وأعطى إشارة.

استيقظ دون ميلڤيو على الصوت الأصم لصفائح البنزين التي راحت تتدحرج على جدران الكنيسة، مدفوعة بركلات من الأقدام. ثم سمع خواراً شبيهاً بصوت رياح عاتية، وطقطقة شتاء توراتي. لمع برق دون صوت رعد، مضيئاً الغرفة بفجرٍ مبكّر.

فكّر دون ميلڤيو: «إنها عاصفة»، وذهب إلى النافذة.

أعادته موجة الحر ثانية إلى الداخل. صرخ كالمجنون لكن النار ابتلعت صوته. اجتاز بقميص النوم بيت الكاهن ودخل برج الأجراس ثم تعلّق بالحبال.

لكن الجرس أصدر صوتاً مصدوعاً، نوعاً من الزئير لم يكن يكفي لتغطية فرقعة الجحيم. عندئذٍ صعد، وهو يلهث متعثّراً بقميصه، الدرج اللولبي كي يحرّر الجرس الذي ربطه خادمُ الكنيسة كما ظن قبل أن يموت. فوجد الجرس آخذاً بالذوبان: مخروط ضخم مترنّح مثل بسكويتة مبلّلة.

قال للخادمة التي راحت تنتظر، وشفتاها مفتوحتان لصلاةٍ جمّدتها على الدعاء الأوليّ، وهو يدخل بيت الكاهن:

«الجرس يذوب تضامناً».

كانت النيران تضيء البلدة كما في وضَح النهار. وقد أصبحت الآن زرقاء، ولاشك، لأن الحرارة أطاحت بشواهد القبور، ولأن الأموات القدامى راحوا يحترقون في الوقت ذاته مع الأموات الجدد.

بدأ الجرس يسيل نقطةً نقطة، واستمر ذلك طوال الليل. كانت كل نقطة رصاص تلمس أرضية برج الجرس بعد طيران خمسين متراً ترن مثل قَرْعَة حزنٍ قاتمة، أكثر رنيناً مما سبق أن سُمع على الإطلاق. وكان مسموعاً خلال السهل بأكمله، على امتداد عشرات الكيلومترات. في الصباح، حين لم تعد الكنيسة سوى حقل من القصب مكنَّسة أرضه بالنار، صعد دون ميلفيو إلى أعلى قبّة الجرس فلم يجد سوى المقرعة الحديدية التي صمدت للحرارة.

47. هجرة

يروى أنه في فجر ذلك اليوم بأن النوافذ قد رحلت. كانت نوافذ بيت الكاهن هي الأولى التي تطايرت فوق الساحة، مناديةً زميلاتها كي تجتمع. أخذت تنفصل واحدة بعد واحدة وتتجمَّع على نداء القائدات في طيرانٍ مرتعش. ثم انطلقت، على إشارة من قادتها، باتجاه الغرب. راحت تطير منخفضة، ضاربة بمصراعيها، بإيقاع بطيء لطيرانٍ عريض وهادئ، مثل إوزات بريّة. كانت الرياح، وهي تخترقها، تجعلها تصفِّر بقوة مثل عصافير خضرٍ. وسرعان ما أضحت خيطاً رفيعاً وتلاشت باتجاه البحر. كانت المنازل، بمحاجرها الفارغة، تعلن الاستسلام.

48. الشاطئ الرابع

صرخ الحارس من بين الصخور: «هذه أسمرا! إنها امرأة من بورغو، أنا أعرفها، لاتطلقوا النار!».

وقف الرجال، وهم يطفئون النار حَذَراً كالعادة.

قال غاريبالدو في نفسه: «أسمرا؟ ماذا تريد هذه أيضاً؟».

إنها حقاً هي، كانوا يميِّزونها بوضوح بين أدغال الوزال، تتقدّم بشعرها الأسود في ريح شهر آذار. كانت تحمل حقيبة من

الورق المقوّى وترتدي بنطال جندي. فأسرع غاريبالدو لملاقاتها.

«ولكن ماذا جئتِ تفعلين هنا؟».

وضعت أسمرا الحقيبة على الأرض ومسحت عرق وجهها.

قالت: «جاءني شك.

ـ أي شك؟

ـ شك.

ـ ولكن هل ستوضحين ما تقولين، مرة واحدة؟».

قالت أسمرا: «هيه! اهدأ قليلاً غاريبالدو. لو تعلم كما عانيت، اهدأ. ومع ذلك، فأنا مازلت متحمّسة».

راحت تشد على البنطال العريض جداً الذي ينزل على وركيها. «لا أريد رؤيتك تموت في سن الثلاثين، هذا كل شيء. ولا تسألني شيئاً آخر».

قال غاريبالدو: «لكنني تخطيّتها منذ عشرين سنة تقريباً.

ـ هيه، لانعرف أبداً، سنة أكثر، سنة أقل. توجد بعض الأحيان أخطاء زمنية في مثل هذه الأمور».

حملت حقيبتها من جديد وسارت بثقة.

«على أية حال، ابتداءً من اليوم سأنضم للأنصار».

أمسكها غاريبالدو من ذراعها وجلس على حجر.

«لقد سمعنا قَرْعَة الحزن. كانت الجبال مضاءة بالوميض الذي يصعد من السهل».

قالت أسمرا بصوتٍ منخفضٍ: «كان ذلك في بورغو. لقد أحرقوا الناس.

ـ وأنتِ، ماذا فعلتِ؟

ـ كنت في منزل ميلشيور، أمضيت فيه الليل بكامله». راحت

تتكلّم وهي تنظر إلى البعيد وكأنها لاتتذكّر ذلك إلا بصعوبةٍ كبيرة.

«ماذا فعل لكِ؟

ـ مات عند الفجر.

ـ هل قتلته؟

ـ لم أضطر لذلك، لقد أمضى ليلة احتضار. في الصباح تقيّأ كل شيء أخضر».

قال غاريبالدو: «قصّي عليَّ ما حدث».

جلست أسمرا على حجر. وكان النهار قد طلع.

«كانت الساعة الثامنة عندما بدأنا نسمع وقع الجزمات في الشوارع. مرّت شاحنتان مليئتان بالبنزين، فرّغتا حمولتهما أمام الكنيسة. ففكّرت على الفور: هؤلاء سيقومون بمجزرة، وأسرعتُ إلى الخارج لتحذير الآخرين. رحت أدور من باب إلى آخر، أدق وأقول: هذه أنا، أسمرا، سيقومون بمجزرة. جمعت حوالى مئة شخص، وقدتهم إلى خلف بستان الفاكهة بين قصب الحفرة. لنسرع، لنسرع. كانت النساء يمنعن الأطفال من البكاء بوضع أيديهن على الفم. بعد أن اجتمعوا قلت لهم أن يبدؤوا السير على طول الحفرة باتجاه البحر، نحو أي مكان يريدونه، ولكن بعيداً، بعيداً. ثم قلت لنفسي سأعود، يجب أن أذهب إلى مكان ما بأسرع وقتٍ ممكن. ذهبت إلى القبو لآخذ شيئاً، ولكنني لم أجد شيئاً آخر سوى الفأس. أخذت الفأس إذاً. كنت أسير ملامسةً للجدران، فأسي على كتفي باتجاه الساحة حيث تُسمع الصيحات. فكّرتُ بأنني مرتدية ثياباً مثل الموت. كنت أفكّر فيه، هو، سبب كل شيء، هذا التعيس. عندما وصلت إلى منزله كان الباب مفتوحاً. وكل شيء بدا غارقاً في الظلام. فكّرت، لقد فرّ جلاوزتُهُ، دفَانو الموتى أولئك، وذهبوا لرؤية محفل السَّبت(*). صعدت السلّم على رؤوس أصابعي. كان باب الغرفة مشقوقاً، دخلت: إنه على السرير، وفمه مليء بالزبد وعيناه إلى السقف. أنذاك

(*) محفل السَّبت (اجتماع ليلي للسحرة، في القرون الوسطى).

نظر إليّ، ثم رأى الفأس ورسم ابتسامة وسط الزبد. لاتضحك مما أفعل، لأنني جئت لأقتلك يا ابن العاهرة. ظل يبتسم ويُلمِحُ إلى أنه ليس هناك ضرورة لذلك، مشيراً إلى قارورة على المنضدة: كان قد شربها بأكملها. قلت له، لقد اخترتَ السُم اللازم، وأنت أيضاً جرذ، جرذ مجارٍ قذر. ثم ذهبت إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها. انظر، قلت له، أيها الجرذ التعيس المسمَّم، ماذا يفعل شركاؤك المتواطئون. كان ضوء النهار يدخل إلى الغرفة مثل شمس حمراء. ومن هناك كانت الكنيسة تشاهد بطريقة غير مباشرة، حتى لتبدو كأنها على بعد خطوتين، تحت النافذة، مع أنها بعيدة. عندئذٍ هبَّ هواء ساخن، هواء عاصفة راح ينفخ الستائر مثل أشرعة. ثم أخمدت الرشاشاتُ العويل. سألني ما هذا؟ قلت له إنه شاطئك الرابع. عندئذٍ بدأ يبكي، كان ينتحب. آهٍ، يمكنك أن تبكي الآن، قلت له، يمكنك أن تبكي. أمضيت الليل على النافذة. أغفى. هززته كي أوقظه. وقلت له، يجب أن تموت مستيقظاً وأن تتذكّر هذا للأبد. كان يريد أن أمسك له يده. وعاد ينتحب من جديد. صار يتمتم، لماذا لم تكن لي الشجاعة أبداً؟ بدا وجهه مستعداً للانفجار من شدة انتفاخه، حتى ليظن أنه منطاد عيد شعبي. كذلك كانت يداه، مثل كرتين صغيرتين. لم يكن يستطيع الحراك، كان مشلولاً تماماً، مرفوعاً على الوسائد، ينظر إلى الخارج. أغمضي لي عيني رحمةً، أغمضي لي عينيّ. أنتَ، ماذا كنت فعلت؟».

كان غاريبالدو ينبش، بوساطة قضيب، في بحرة البصاق التي صنعها أمامه.

«مثلما فعلتِ أنتِ.

ـ أغمضتُ له عينيه. وكان النهار قد بزغ».

149. وفي يوم واحد انتهت الحرب

دخل المحرِّرون إلى قريةٍ ميّتةٍ. كان الأحياء يريدون أن يكونوا أمواتاً هم أيضاً، ولم يخرجوا. عندئذٍ اضطر الجنود إلى الدخول إلى

المنازل وهم يغنّون بلغاتٍ غير مفهومة ليقولوا، مع مصافحاتٍ وعناقات، إن الحرب قد انتهت في يوم واحد.

50. مِن الغَمّ أو من الشيخوخة

يجب تفتيش الدير، كانت هذه هي أوامر القيادة، في حال أن هناك ثمة ألماني مندحر قد لجأ إليه، ويُخشى أن يخرج بعد ذلك ويقوم بمجزرة، بدافع اليأس. لكن الجنود راحوا يتباطؤون أمام الباب، إذ عندما يحدث الأسوأ يخاف الناس من أقل شيء. كانوا يمسكون برشاشاتهم جاهزة تحت أصابعهم العصبية، وبعضهم يدخّن.

قال الضابط الأمريكي: «أطفئوا سجائركم».

انفتح باب المدخل من الدفعة الأولى، كان مشقوقاً، وكأنه ينتظر زيارة، ووجدوا أنفسهم مقذوفين في رواق الدير. ردة فعلهم الأولى هي أن يلقوا بانفسهم على الأرض، لكن أحداً منهم لم يقم بأية حركة، لشدة ما اندهشوا بألا يجدوا إلا عشب الإهمال، هناك حيث كانوا ينتظرون رؤية ألماني يائس. تأهّبوا على شكل دائرة بناءً على إشارة من الضابط وتقدّموا بحذر، ورشّاشاتهم تحت أذرعهم، متحاشين السير فوق الأغصان الجافة. درسوا العشب بالتفصيل، جاعلين الثعابين والسحالي التي تعشّش فيه تفرّ دون أن تنزعج. وعندما التقوا عند الإفريز حيث يوجد الجرس، وهم مايزالون خائفين، استعادوا أنفاسهم وانتظروا الأوامر.

قال الضابط: «انتشروا اثنين اثنين».

ولجوا المدخل جماعات صغيرة، مستعدين تقريباً لإطلاق النار على الشحوب المرمري للقديس فانسان، الذي بدا في الظلام، أنه الألماني اليائس. ذهب اثنان منهم إلى الغرفة الصغيرة المجاورة،

وهي غرفة قاتمة سقفها مقبَّب وأرضيتها ذات مربعات منسَّقة، وتراجعوا على عجل عندما وجدوا أنفسهم أمام الشبكة الخشبية ذات الرسم القاتم، التي كانت في وقت سابق، أثناء المداولات، قد رسمت الحدود بين الذين زهدوا في الدنيا والذين مايزالون يسكنون فيها. بدا لهم أن ظلاً يمر خلف الشبكة، ولم يحتَج الأمر إلى أكثر من هذا لإطلاق الرشاش: طقطقت شظايا الخشب على الجدران، وكشفت الفُرْضات التي انفتَحَت في الغطاء الخشبي عن معطفٍ معلَّق على مسمار على الجدار الخلفي، منسي من زمن لايعرفه إلا اللّه.

كان الدير يمتد في دهليز طويل، واستمروا بالتقدُّم اثنين اثنين على أرضية من القرميد، مثل بيادق، معيدين حركات تعلَّموها في الحرب. يتوقفون عند كل باب، وفوهات بنادقهم موجَّهة نحو الداخل، يفتِّشون الزوايا ويقولون: «لاشيء هنا أيضاً». ثم توقفوا عندما سمعوا صراخ واحد منهم. لقد صرخ:

«إرفع يديك!».

أمر رفيق الجندي الذي صرخ: «استديري».

كانت الراهبة جالسة إلى طاولة صغيرة، ورأسها متكئ على ذراعيها، تنظر من النافذة إلى الخارج لكنها لم تستدر، وكأنها لم تسمع.

قال رفيق الجندي الذي صرخ: «انظر إذا ما كانت حقاً راهبة».

قفز الثاني إلى الأمام، وذراعه ممدودة والرشاش جاهز، وانتزع غطاء رأسها الأبيض الذي طار مع التيار الهوائي الآتي من نافذة مفتوحة قليلاً. عندئذٍ انتشر على ثوب الراهبة شلَّال من شعر لونه أصهب، وكأنه خارج من مغلَّف، وهو مايزال مثيراً على الرغم من الشيخوخة. استدار الرأس تحت الصدمة، وأظهر وجهاً متغضِّناً ينظر إلى السقف المقبَّب بعينين زجاجيتين، لكن الفم كان يحتفظ

بالثنية التي جمّدته فيها مفاجأة الموت: تكشيرة عناد، وتكشيرة ألم للعناد ذاته.

قال رفيق الجندي الذي صرخ:

«كأنها ماتت من الغمّ».

فرد الآخر: «من الغم، أو الشيخوخة».

بدأ الظلام يحل، ولاوجود لأي ألماني يائس. اليأس الوحيد الذي وجدوه في الدير بأكمله كانت التكشيرة غير المفهومة على شفتي الراهبة الميّتة.

51. لم تعد قدسية البابا من أركان العقيدة

علموا أن دون ميلڤيو أصبح ناسكاً في الجبل، فوق غابات شجر الزيتون، وأنه ينام في كهفٍ، شِقٍّ بين الصخور واللبلاب. انتظروه أيام آحادٍ عديدة، ثم قرّروا أن ينظّموا موكباً. فاجتمعت النساء عند حلول الليل في حوش الكنيسة المبقّع بالأسود، تحمل كلٌّ منهن بيدها شمعةً محميّة بقمعٍ ورقي. كانت زلميرا هي التي تقودهُن، وخمار أسود على رأسها. وكان الأطفال الذين نجوا من الخطر يمثّلون الملائكة بقمصان النوم البيضاء. تسلّقوا منعطفات الدرب الضيّق وهم يغنّون «جميلة كما الشمس»[29].

صاحوا جميعاً عندما وصلوا إلى مسافة مئة متر من الكهف: «دون ميلڤيو، دون ميلڤيو!». وانتظروا مشكّلين نصف دائرة.

خرج دون ميلڤيو من حفرته. لقد صنع لنفسه، من جبّته الموضوعة على أربع قصبات، مظلّة ليحتمي بها من الطقس الجميل. كان يرتدي سروالاً قصيراً من القطن وقميصاً يخرج منه شعر صدره الأبيض. رفع ذراعيه نحو السماء وكأنه يطلب صمتاً مطلقاً.

صاح قائلاً: «أشكركم على مجيئكم، لأنكم ترفعون حملاً ثقيلاً جداً عن قلبي، ولأنني لم أستطع النزول إلى القرية».

مرّت بضع دقائق وكأن دون ميلڤيو لم يجد الشجاعة ليتكلّم.

عاد يقول أخيراً بصوته الجهوري: «أيها المؤمنون، أيها المؤمنون. إنها المرة الأخيرة التي أدعوكم بها هكذا، لأنها المرة الأخيرة التي سأكلّمكم فيها ككاهن. ابتداءً من الآن أدعى سكروتشي، دون أي شيء أمامه. سكروتشي، لاغير».

بدأت العجائز، خلف الصليب الجديدي الكبير الذي يحتفظ بذكرى حجٍ قديم ينتحبن، وعدا ذلك لم يكن يسمع سوى صرّارات الليل.

«لقد تأملت كثيراً خلال هذه الليالي كلها (كان دون ميلڤيو يستمر في الإشارة إلى السماء، كما لو أنه يُشهدها على كلامه)، أكلتُ الجراد مثل القديس جيروم، وشربت قطرات من الندى لإماتة الجسد، وأعتقد أنني وجدت أخيراً حقائقي، لن أقول لكم منها سوى واحدة من أعلى هذا المنبر الجبلي، ليس لأفرض عليكم معتقداً بل لأقدّم لكم نصيحة. كل الحقائق الأخرى لاتخص أحداً سواي، ولاتهمّ أحداً».

حدثت جلبة وبعض ضرباتٍ بالمرافق وقالت زلميرا:

«سكوت!».

ترك دون ميلڤيو دقيقة تمر طويلة، كما ليجد القوة لاستخراج هذه الحقيقة من نفسه. وعندما عاد للكلام مرة ثانية كانت نبرته حاسمة.

صرخ قائلاً: «أيها المؤمنون، أيها المؤمنون، إنني أقول لكم هذا فقط: لم تعد قدسية البابا من أركان العقيدة، والذين يؤمنون بها هم بلهاء».

تلقّى صدى الجبال هذه الكلمات الأخيرة وردّدها ليجعلها أكثر إقناعاً. ترك دون ميلڤيو ذراعيه تسقطان، وقام بحركة واسعة بيده، داعياً إياهم إلى الانصراف، مثلما كان يشير بأن القدّاس قد انتهى، فالتفتت زلميرا نحو الجميع وقالت:

«لم نكن ماندعى بالأصدقاء، لكن من الواجب أن يذهب أحد ليتحدّث معه».

انفصلت عن منتصف نصف الدائرة واتّجهت نحوه. كان الليل قد حلّ الآن، وقد شكّلا بقعتين قاتمتين تحت البقعة السوداء للجُبة - المظلّة. شاهدوهما يشيران بحركات كثيرة فترة غير قصيرة، ثم ذهب دون ميلڤيو بثقة، حيّا الجميع بيده وانزلق في الأخدود بين الصخور.

لم يروه بعد ذلك أبداً. وفي كل مرة كانوا يذهبون فيها لمناداته على مدخل الأخدود («سكروتشي، أوه، سكروتشيييي!»)، كانوا يسمعون صوتاً يصل دائماً من مكان أبعد: حتى ليقال بأن دون ميلڤيو راح يحفر مثل دودة كي يغوص داخل الأرض. وأقسم بعضهم أنهم سمعوا حفراً تحت أرضيات منازلهم، وأكّدوا أن دون ميلڤيو هو الذي يحفر مثل خلد، في رحلة تحت العالم. ثم ابتعد الصوت، ولكي تستطيع سماعه كان يجب الذهاب إليه عند الفجر، عندما يكون كل شيء صامتاً حتى صرّارات الليل، وأن تنادي مراتٍ عديدة، ومع لصق الأذن على الأرض، إذا كانت الأذن رهيفة، بالإمكان سماع تنهيدة ضعيفة وصوت «كررر كررر كررر» غامض، مثل صوت دودة تقضم في البعيد. ولم يعد مرة ثانية إلى السطح، فقد ضاع في أعماق العالم: مثل غريق عنيد، ترك نفسه ينساق مع حقيقته التي لم يستطع أحد آخر غير زلميرا معرفتها.

الحقبة الثالثة

1. اللغة العامّية

رأوا غاريبالدو يصل، من نهاية الساحة، من جهة الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى الشاطئ. كان ذلك في نهارٍ من شهر تموز، تنفخ فيه رياح «ليبيكيو»(*)، نفخاً قوياً جداً حتى غلّفت بورغو بغيمة من الغبار: كان رمل الشواطئ الناعم، بعد اجتياز المستنقعات الجافة الممتدة كيلومترات، يقف على منحدرات التلال وهو يلمع. تقدّم غاريبالدو في هواء الساحة، ماسكاً بيدٍ جافة قبعته. وقف برهة قرب أسفل التمثال، وضع خُرْجَه على الأرض وبال على قاعدته وهو ينظر من تحت الذراعين العاريين إلى الديمقراطية التي تتلقّاها إيطاليا من يدي «بطل العالَمين».

«هذا غاريبالدو» قالها غيدو البدين، وهو يظهر أسنانه المترنّحة التي كلّفته لقب «آكل الحصى».

غيدو البدين كان بطلاً في المصارعة الحرّة، وكان له مستقبل عملي باهر. حتى أنه تنافس مرّة على مباراة في فرنسا. ثم تلقّى ضربة رأس على أسنانه، وخلال شهر واحد كانت قد تلفت تماماً، وتوقّفت مهنته عند هذا الحد.

(*) ليبيكيو (رياح جنوبية غربية، تهب على الشاطئ اللازوردي وكورسيكا).

«هذا غاريبالدو، لقد تركوه يخرج».

كانت المجموعة الصغيرة تقف تحت عريش «سبلنديد»، الذي أضاف إلى الواجهة حانةً مع عشرات من الطاولات الحديدية. وإلى جانب باب الدخول، إلى اليسار، تتدلى لافتة إعلانية تعلن عن فيلم كان يجب أن تُفتتح به السينما قبل عشر سنين. وإلى اليمين ملصق أصفر مكتوب باليد:.

هذا المساء في سينما ـ مسرح سبلنديد
في الساعة 21، منتدى شعبي
حول مشاكل المعمل
السُكان مدعوون
للمشاركة.

تقدَّم غاريبالدو بخطوة مهيبة، مستعداً لمصافحة الأيدي الممدودة. وبلحظة شكَّلت المجموعة دائرة حوله لأن كلاً منهم أراد معرفة الأخبار.

قال غاريبالدو: «أنا الذي يجب أن أعرف الأخبار». ونظر إلى الإسم المكتوب بالجص على الواجهة.

عندئذٍ، لاحظ أن حرف ـ الدال ـ الأخير قد وقع: بات وقْعُ الإسم هكذا، بعد كل شيء، أفضل، لأنه أكثر غرابة.

قال «آكل الحصى»: هيا إلى الداخل، أيها الشبّان، الجو هناك أكثر برودة».

ثم قال غاريبالدو مشيراً إلى التمثال: «لقد أعطونا معلِّماً جديداً».

رد الآخرون: «إيه، نعم!».

فقال غاريبالدو: «لكن من الذي يؤمن بذلك الآن؟».

دخلوا إلى القاعة الكبيرة الرطبة، الجاهزة الآن لاجتماع المساء. وقد وُضعت على المنصة طاولة مع أربعة مقاعد، وهناك

امرأة عجوز تكنس. طلبوا عصير البرتقال المحلّي وتهيؤوا للاستماع.

سأل غاريبالدو: «متى ستفتتحونه؟»

ترك الآخرون الكلمة لـِ «آكل الحصى»، الذي كان يعرف كل شيء تقريباً.

«إذا ما استمر الأمر على هذا النحو فسنشتريه العام القادم، مردود الحانة ليس سيئاً، جمعنا مالاً كثيراً في احتفال الـ «أونيتا»[30] الأخير.

سأل غاريبالدو: «هل سيصبح المبنى بأكمله «كازا ديل بوبولو؟[*]

ـ المشروع الذي لدينا هو أن نُبقي اسم «سبلنديد» المعروف في كل السهل، وأن نضيف تحته: «كازا ديل بوبولو». الذي يتكلّم هو «سيشينو»، ابن عم غافور، وهو شاب أشقر له وجه نمس يعمل سائقاً في المسلخ البلدي».

سأل واحد من بينهم: «ما الذي حدث لك غاريبالدو؟».

بدأ غاريبالدو يتحدث وصمتت المجموعة.

«قطعتُ المرحلة الأسوأ. ذهبت في الشتاء وبقيت حتى الصيف. الزنزانة مليئة بالشبان في ذلك السجن العاهر. لكنني لم أطأطئ رأسي».

حدثت جَلَبة عامة وهتافات كأنها لغة غريبة.

قال غاريبالدو وهو يشد على سيجاره: «إنها ليست لغة غريبة، أيها الأصدقاء. إنها أعجوبة العصر، أيها الرفاق، إنها تدعى اللغة العاميّة.

وكان يعرف أيضاً كيف يرطن بلغةٍ خاصة مشوّهة وغير

(*) بيت للشعب.

مفهومة، علّمه إياها مرسيلي كان سيتعفَّن في السجن لأنه قتل أبلهاً.

عندما انتهوا من الحديث عن المعمل بات غاريبالدو تعباً جداً لايستطيع أن يتابع حديثه، فقال:

«عندي اقتراح لكم، لكننا سنتكلَّم حوله غداً مساءً. اتركوني الآن أعود إلى منزلي، إنني متعب كثيراً وأود أن أفاجئ أسمرا».

نهض وسلك طريق منزله. تذكّر من جديد تلك الليلة التي ذهب فيها لملاقاة أسمرا، وقد أعلن:

2. التودت

أعلن غاريبالدو: «لقد وجدت عملاً جديداً».

كانوا يأخذون الجميع دون أن يدقّقوا فيهم عن كثب. وكان هناك الكثير مما يجب عمله: إعادة بناء المجاري، إعادة رصف الطرقات التي حفرتها الألغام، وإزالة الأنقاض. وأيضاً هناك قسم متخصّص في البحث عن المواد الحربية لإبطال مفعولها. والأجر جيد لأن المرء قد يدفع حياته بسببه. ويختلف الأمر بالنسبة للأعمال العادية، حيث الدفع نصفه نقداً، والنصف الآخر على شكل قسائم غذائية: صرّة من الرز، والطحين والسكّر يومياً. وتابع غاريبالدو:

«إذا ما عزمتِ نتزوّج، قولي لي متى يناسبك كي أنجز الأوراق».

بدت أسمرا قلقة، لاتنوي الإجابة ولاترفع عينيها عن تطريزها.

تمتمت: «إنني ألبس الحداد على عمّتي، انتظر حتى ينتهي. لاتكن عجولاً، لقد انتظرنا طويلاً حتى الآن».

اعترض غاريبالدو: «لكنها ماتت منذ ثلاث سنوات».

قالت أسمرا: «لانرتدي ثياب الحداد وقت الحرب، نرتديها وقت السلام. لقد بدأت العد ابتداءً من يوم التحرير».

استسلم غاريبالدو للانتظار. كان يذهب لملاقاتها كل ليلة، كما في الماضي. وفي موسم الإزهار، كان يقف برهة في الحديقة ليختار وردة. كانا يتحابان على الأغطية المطرّزة، بقوة الحنين إلى الزمن الذي فسد. وعندما قررت أسمرا خلع ثياب الحداد أملت شروطها. تكلّمت بهدوء ولكن بحزم وهي تطلب منه أن يفهم. فهي لن تغيِّر مسكنها. إنها الآن عجوز، عاشت في هذا المنزل طوال حياتها، ومات فيه أهلها، وانتظرت هنا وقتاً طويلاً: العديد من الليالي وعيناها على التطريز، وأذنها على ساعة الحائط، وهي تعد السنوات.

كان غاريبالدو يوافق وهو يرفع رأسه:

«إذن، ما العمل؟».

بدا أن أسمرا فكّرت بكل شيء:

«أنا لاأصر على رؤيتكَ هنا في هذا المنزل. لا أتصوركَ فيه، ولن تشعر فيه أنكَ على راحتك. إنه أكثر عدلاً أن يبقى كل واحد منا في منزله».

ولكن كان هناك شيء آخر يحرق لسانها.

أصرّ غاريبالدو: «بما أننا في الموضوع، قولي لي كل شيء.

ـ أريد أن تُدَق لنا الأجراس.

ـ لكن بما أننا لن نتزوج في الكنيسة فهل تظنين أن القس سيجعل الأجراس تدق لكِ».

ولم يجد أية وسيلة لجعلها تعدل عن فكرتها.

عاندت وهي تقول بأن هذا عيدها، والأجراس ستعلن ذلك.

«الأمر هكذا أو لن أتزوّج».

لجؤوا إلى زلميرا التي ذهبت للتحدُّث مع الكاهن الجديد، وهو شاب قصير شعره مدهون، رفع أسعار التعميد وقدّاسات الذكرى، وكان يقول كل الآحاد من أعلى مذبحه بأن الشيوعيين يذهبون إلى

الجحيم وهم الذين قادوا إيطاليا إلى دمارها، لأنه لو لم يكن هناك شيوعيون، لما كان هناك فاشيون، وإذاً، لما كانت قد حدثت حرب أو ألمان. ولحسن الحظ، أن هناك دي غاسبيري[31].

انفتحت حفرةٌ صغيرة في شرنقة السنوات التي تحيط بزلميرا، وبدأت تهرب منها الحياة. كان صوتها صغيراً رقيقاً، أخذت تعبِّر به، تاركةً التعبير بالحركات.

قال الكاهن: «أتُدَق الأجراس لهذا الكافر الذي يتزوَّج في دار البلدية. هيهات».

تظاهرت زلميرا بالذهاب.

وتمتمت: «كان دون ميلڤيو على حق».

شحب الكاهن، ثم سأل ونَفَسه مقطوع: «وما معنى هذا؟».

قالت زلميرا: «لاشيء أكثر مما قلت، دون ميلڤيو كان على حق».

«وماذا قال دون ميلڤيو؟» تجرَّأ على السؤال بصوت يتعمَّد فيه السخرية وكأنه يقول: «أصدِّق هذا. وماذا يهمني ذلك». بينما كان يفكِّر في قرارة نفسه: «ها قد حانت لحظة خداعها، سأتمكَّن أخيراً من انتزاع السرِّ منها بطرح أسئلةٍ بارعة».

لكن زلميرا كانت قد وصلت إلى عتبة الباب.

«إيه حسناً، إذا ظننتَ أنني سأقول لكَ ذلك، فيمكنك المحاولة دائماً».

قال الكاهن: «انتظري».

وهكذا تزوَّجا على صوت الأجراس.

3. ماذا يعني، إيراد مدى الحياة؟

قادوها إلى المدينة ولم تبدِ أية مقاومة. كانت تحب ركوب السيارة: في صغرها، في هذه المدينة، كانت تذهب مع أمها في

العربة قبل عيد الفصح لتتسوّقا. تقفان على الساحة الرخامية وتتنزهّان متآبطتين.

كانوا قد قالوا لها: «يجب أن تكوني نظيفة جداً، وإلا شَمَّ الأسقف رائحتك».

ولكن كيف كان سيفعل ليشم الروائح الكريهة في هذه القاعة المليئة بالقرنفل والبلاط الملمّع ومبخرتين موضوعتين على عمودين: ليس بالإمكان شم الروائح الكريهة.

«الأسقف هناك في الخلف».

كان يجلس تماماً في نهاية ممر طويل مثل قطار؛ ففكّرت أنها لن تصل إليه أبداً: اضطروا إلى أن يقودوها إلى باب المكتب.

«قبّلي خاتمه، هل هذا مفهوم، قبّلي خاتمه».

أجابت زلميرا بهزّة من رأسها: «نعم، نعم».

لكنها نسيت بعد ذلك لأن الأسقف كان في جهة مصدر الضوء فصار لزاماً عليها أن تضيّق عينيها كي تراه. كان يتكلم بصوت منخفض لاتفهمه مع هذه الأجراس القريبة جداً، والتي بدأت تعوي في لحظةٍ ما مثل المجانين، ولاتتوقّف أبداً. ثم أشعل سيجارة، هل رأيتم قبل الآن شيئاً مثل هذا، أسقف يدخّن؟ لو أنها رأته في الشارع، لما صدّقت إطلاقاً أنه أسقف حقيقي، وإنما شخص ما متنكّر بزي أسقف. أما وهو في هذا المكان، محاط بكل هؤلاء الخادمات وهؤلاء المرشدين، جالس إلى مكتبه، وخلفه الفتحة المغطاة بالزجاج التي تطل على الساحة، يجب حقاً أن يكون هو الأسقف.

لكن، هل للأساقفة الحقيقيين الحقّ في طلب بعض الأشياء؟ ثم إن هناك طريقة وطريقة، وعند هذا الحد أصبحت زلميرا حاسمة. كانت عجوزاً جداً، حتى أنه بات من المستحيل أن تكون عجوزاً أكثر

من ذلك، ثم ماذا يعني لها إيراد مدى الحياة؟ وحتى لو لم يزعجها بحركاته المتكلّفة كَمُشْتَرٍ، فإنَّ ما قاله لها دون ميلقيو يبقى بينه وبينها: لماذا وَجَبَ أن تذهب لتقصّه على هذا الشاب الأشيب الذي يدخّن السجائر جالساً في جهة مصدر الضوء، في هذه الغرفة المُنْتِنة برائحة القرنفل.

«لَمْ تُقبّلي خاتمه.

ـ ماكان يجب أن تتصرّفي على هذا النحو.

ـ لقد أهنتِ سيّدنا».

أوصَلوها حتى السيارة التي تنتظرها في الساحة الرخامية. عندما كانت صغيرة في هذه المدينة كانت تذهب في العربة مع أمها قبل عيد الفصح لتتسوّقا.

4. الأورغَنْدي(*) يجعلنا نتعرق

بقيت أسمرا مرتابة حتى النهاية، مع أن زلميرا أكّدت قائلة: «لقد أمرته، لقد أخفته».

لكن، في اللحظة ذاتها التي أمسكت فيها الريشة لتوقّع على السّجل بدأت الأجراس تدق. خرجا من البلدية متآبطين. كانت أسمرا ترتدي ثوباً زهرياً شاحباً من الأورغندي المطرّز. اجتازا الشارع ووقفا في الساحة ليأخذا حلوى مثلّجة من الكشك الذي امتلكه غاڤور سابقاً.

كانت زلميرا تنتظرهما في المنزل، بصحبة غيدو البدين وفتاة فريول التي أعدّت المرطبات معها. كان حفلاً كئيباً، مع أسمرا التي راحت تبكي فرحاً، ثملة تقريباً، بسبب كأسٍ من مشروبٍ روحي

(*) أورغندي (نوع من الموسلين الرقيق الشفّاف).

تناولته على الريق لكي يمدها بالشجاعة. هزها نحيب بَدا كأنه بسبب اليأس، لحظة قطع قالب حلوى الزواج، لكنها تمالكت نفسها بعد القهوة: جفَّفت عينيها وصعدت إلى غرفتها لتمشِّط شعرها. عندما نزلت من جديد، بعد أن خلعت الأورغندي الذي يجعلها تتعرق، وجدت المدعوين يغطّون في النوم، تحت تأثير الأقداح الصغيرة التي شربوها. انتفض غاريبالدو الذي كان يحرُك رأسه برفقٍ في نومه عندما شعر بيدٍ على كتفه. كان يحلم أنه في تابوت، خلف شاهدة. توقَّف الألمان أمامه تماماً، وأشار الضابط إلى القبر؛ وغاريبالدو يتابعهم بعينيه من خلال فتحة صغيرة في الرخام، تماماً تحت المصباح الدائم.

قال الضابط: «اخرج من هنا، لقد أوقعتَ نفسك بلعبتك ذاتها. ما كان يجب أن تتمادى وتضع صورتك الشخصية على لوحة الشاهدة المعدنية!».

التفت غاريبالدو ونظر مشدوهاً إلى الصورة فوق المصباح. كانت صورة ڤولتورنو.

صاح بثقةٍ: «هذا ليس أنا، إنه عمي ڤولتورنو!».

ابتسم الضابط ساخراً.

انتحب غاريبالدو قائلاً: «ماذا يعني هذا؟ أريد أن أعرف ماذا يعني هذا. هذا القبر هو قبر عمي كوارتو، لقد سُجِّل عمي ڤولتورنو مختفياً في أفريقيا!».

لكن الألمان كانوا آخذين في خلع بزّاتهم. لم يكونوا ألماناً البتَّة، في الواقع، بل إيطاليين. كانوا يضحكون.

قال الضابط وهو يضع يده على كتفه: «كل هذا مزحة، هيّا، لاتجعل منها قضية. كانت مزحة، الآن، يمكنك العودة إلى منزلك».

قالت أسمرا: «يمكنك العودة إلى منزلك. عندي الكثير من الأعمال لأنجزها بعد الظهر».

مشّد غاريبالدو شعره وارتدى سترته. كانت هناك بقعة من النبيذ على قميصه، اللّعنة! لحق به المدعوون وهم يتابعون تمني السعادة الكبيرة لأسمرا. بقيت زلميرا فقط لتساعد في ترتيب المكان.

صرخ غاريبالدو وهو قرب البوّابة: «سأمر هذا المساء».

5. فكرة «آكل الحصى»

كان صيفاً وفيراً لم يروا مثله إطلاقاً. راح بعضهم يقول إن سبب هذا أن الأرض ارتاحت، ونسيت القنابل واستعادت خصوبتها ثانية. ولم تكن السماء تمل اللونَ الأزرق فحتى في الليل بدا أنها اختارت لوناً نهائياً.

من الآن فصاعداً أعيد صنع جميع النوافذ من جديد. لقد انتظروا سنوات عدة، مع الأمل الخفيّ بأنها ستعود، حتى لو بدا هذا عبثياً، وأكثر عبثيةً من الاعتقاد بهروبها. وفي أثناء ذلك كانوا قد استبدلوها بستائر من حصر منسوجة من القصب، والورق المقوى المضغوط، والخشب المعاكس المدهون باللون الأخضر. أمّا في هذا الصيف فقد قَرَّ قرارُ الجميع، بعضهم أولاً، ثم تبعهم الآخرون. بعد الاستعداد الذي دلّتْ عليه الأرض عادت الأشياء إلى مكانها من جديد، وإذا كانت النوافذ لم تعد فهذا يعني أنه من الأفضل عدم انتظارها بعد الآن. ربما المنطق السليم هو الذي ربح: هل حدث أبداً أن رأينا قرية بلا نوافذ؟ في الماضي، نعم، كما يقول المسنّون. لم يكونوا يعيرون اهتماماً لذلك، وكان ينقص العديد من الأشياء، في الزمن الذي كان الرجال فيه يقطعون القصب. أمّا الآن، ومع التطور، فقد بات الجميع يشترون الدراجات النارية الصغيرة، ويأكلون اللحم حتى في الأيام المخصّصة للعمل. وبذل الكاهن الجديد جهده من أعلى منبره: ألم يروا التطور الكبير الذي يقدّمه دي غاسبيري لإيطاليا؟ ألم يحن الوقت للانتهاء من هذه الحذلقة، كان ذلك يشبه

التحدي، إصرار على استرجاع الذكرى بأي ثمن، كل ذلك من أجل أربع أو خمس قنابل. أساساً لابد أنه لم يكن هناك مقدار أكبر بكثير منها: قنبلة واحدة تكفي لتفجير النوافذ في قرية صغيرة كهذه.

يجب أن يفتح مسرح سبلنديد أبوابه في شهر أيلول.

كانت الإشاعة تقول: «هذه المرة سيفتح جدياً، فالسلام مستقر».

افترضوا ألف افتراض حول عرض الافتتاح. هل هو فيلم، أوبريت أو حفلة راقصة؟ كانت الأغلبية تميل إلى الفيلم لرغبتهم في مشاهدة فيلم بالألوان قيلت عنه الأعاجيب.

بدّل غاريبالدو نوافذه أيضاً. لقد وضعها على محور مزدوج، على سبيل الحيطة، في حال حدوث أي شيء وفي حال أرادت أن ترحل ثانية.

في أحد الأيام في فترة ما بعد العشاء كان مبحراً في ذكريات فضّية رنّانة. تناهى من الشارع صوت متقطّع باللُّهاث: «غاريبالدو».

إنه آكل الحصى. دخل وصوت حصىً في فمه. كانت طريقته المفضّلة للتطرق إلى أي موضوع هي قضاء نصف ساعة في وصف كل مراحل لقائه الفرنسي الذي تلقّى خلاله ضربة الرأس تلك، فوق أسنانه. لذا قال له غاريبالدو:

«قل لي على الفور ما لديك لتقوله لأنني أشعر بالنعاس».

طلب آكل الحصى، وهو يحك بطنه، قدحاً من النبيذ. عند القدح السابع كان غاريبالدو قد انخرط في الجلسة. بدت فكرة شراء مسرح سبلنديد كمشروع تعاوني فكرةً من الطراز الأول، فقد حقق أساساً شهرةً قبل أن يبدأ، وبعد ثلاث أو أربع سنوات سيكون قد استوفى تكلفته. وفي أثناء ذلك كان بإمكانهم الاجتماع فيه وعرض الأفلام: ثم يصبح المكان ملكاً لهم.

صَفرَت فَجَوات أسنان آكل الحصى: «وسنفتح فيه حانةً للتعاونية الزراعية».

6. قصةٌ وطير مسمَّن

قال غاريبالدو: «انتهى العمل! لم يعد هناك «تودت»، ولاعمل! سنبدأ من الصفر ثانية».

كان جاثياً على ركبتيه أمام غطاء من النسيج الخام مع حبرٍ وفَرَاشٍ.

قال غاريبالدو: «انظري قليلاً إلى الحديقة».

تقدَّمت أسمرا إلى العتبة ورأت سيارة «لامبريتا» على ركيزتها.

«اشتريتُها مستعملة بنقود تسريحي من «التودت». محرِّكها دقيق للغاية».

كان يرسم شاباً بثيابٍ حمراء، يلقي قَدَماً داميةً على قبة القديس بطرس.

«ولكن ماذا تريد أن تفعل؟».

وقف غاريبالدو وهو يمسح يديه بخرقة.

«سترين، سوف لن نموت من الجوع. أعزف الموسيقى، وأعرف العديد من الأغنيات. ومنفاخ الأكورديون في حالة ممتازة. وما دمت لم أجد عملاً مستقراً سأقوم بجولات.

ـ ولكن، ما الذي سيعود علينا من عمل كهذا، برأيك؟».

قال غاريبالدو: «سوف أبيع أيضاً طيوراً مسمَّنة».

تجوَّلت سيارة اللامبريتا في العديد من القرى بسعالها الخفيف: تلال «غاڤين» ضامرة الشوك، «روبيكاڤو» الشحيحة الماء، التي كنا فيها نشتهي صفحة البحر البعيد الزرقاء؛ «فيليترو» اللابدة في الرطوبة؛ ثم ترى بعيدة في السهل، نحو السبخات الساحلية، ساحات محفوفة بالثيران، غارقة في عَضرونيات بيضاء تظلِّلها غربان

متأخِّرة. يأتي غاريبالدو، يُنزل حمولته من الطيور المسمَّنة، الأكورديون واللافتات ذات الرسوم الملَّونة، من حاملة الأمتعة. كان يبدأ بالقصة المسماة «روما وطيور الغرَّاء»، حيث يُشاهَد غاريبالدي وهو يقدِّم لإيطاليا قَدَمه في البدء، ثم حياته. ثم تأتي قصة رجل وحيد وشاحب يختفي في غسقٍ برتقالي أفريقي: عنوانها «مات في سبيل حفنةٍ من الذباب». وأخيراً قصة صليب حرب، وامرأة أصبحت زرقاء من شدة تفكيرها بالبحر، وأحدب كسروا ظهره بعد موته كي يستطيع النزول في التابوت مستقيماً مثل حرف «ا»، وجرس ذاب تضامناً، وبعض النوافذ التي هربت من الذعر.

كانت الطيور المسمَّنة تباع جيداً.

7. مَنْ هنا، ومَن ليس هنا

عاد السيرك الفرنسي عندئذٍ مرة ثانية.

كانت منافسة دون رحمة من أجل حانة التعاونية، التي افتتحت الآن في واجهة سبلنديد، والتي بقيت خالية مدة أسبوع كامل. وكان أيضاً شارِبا السيد وانيون هما االلذان يديرانها. وماسيست، المجعَّد مثل بالونٍ أفرغ من الهواء، ينثر النشارة على الحَلَبة قبل دخول الخيول. ويبدو أن خيط «مونتيرو الثاني» قد تحطمَ، هو الآخر، في غوادالاخارا. ولاشك في أن نيميسيكوس هو الآن وحيد وسعيد في هيئة (رجل ييتي) من «التيبت».

وأطلق بيكوس بيل، بشعره المُعالَج بالأكسجين، النار بكلتا يديه من أربعة مسدسات، وشكَّلت الحُفَر كلمة «شكراً» نهائية على لوحة التصويب الكبيرة المصنوعة من الحديد الأبيض.

8. نصف رسالة من الرصاص

أصبح مشهوراً في السهل بكامله، وحتى فيما وراءه. كانوا يدعونه لأعراس في أماكن بعيدة جداً، ويدفعون له أجوراً مالية،

إضافة إلى الطعام والمبيت. يذهب في سيارته اللامبريتا ويصحب أسمرا معه أغلب الأحيان إلى أعراس تُقام دوماً في الهواء الطلق، مع حفلات راقصة تحت العرائش وشرائط حمراء معقودة في عُرى الثياب. في يوم جميل عاد إلى المنزل متحمّساً جداً، مشبعاً بالرضى، لأن «الحزب» قد وقّع معه عقداً لأعياد الـ «أونيتا».

قالت أسمرا: «انتبه، إنك تلوّث تطريزي».

أمضى شهراً في تحضير نفسه. يعزف من الصباح حتى المساء، ويكتب أغنيات على صفحات التقويم، ويطابق كلمات أغنيات ثورية على موسيقى تانغو أرجنتينية.

كان عيداً لاينسى: ثلاثة أيام متواصلة مع حشد ضخم. بيع فيه من المثلّجات والصودا أكثر مما بيع خلال الألعاب النارية للقديس ألكسندر، الشيء الذي يؤكّد نجاحه. كان هناك دائماً اجتماع عام في البداية، ثم فيلم عن «التحرير»، وأخيراً الرقصات والأغاني. صعد غاريبالدو على المنصة مع أكورديونه. في البداية راح قلبه يخفق بجنون، لكن ذلك مرّ وتمالك نفسه وعزف لائحته بحميّة. أنهى وصلته بأغنية كان قد جهّزها، أغنية راقصة مؤلّفة من مقاطع ثلاثية ذات قافية مسجّعة من النمط «الدانتي»، حيث يتكلّم عن جحيم صَنَعَهُ البنزين. كان نجاحاً لامثيل له، بكى العديد من الناس وذهبوا لمعانقته. عندما كادت الأمور تؤول إلى السوء، حاول صوتُ المكبِّر جَعْل الأمور أقلّ مأساوية: «انتهت هذه الفترات القاتمة لحسن الحظ. لكن يجب أن تبقى دائماً حاضرة في ذاكرتنا حتى لاننسى أبداً ما كانت عليه الفاشية»! وانتقلوا إلى القسم الثاني من التظاهرة وهي سباق الأكياس.

في ذلك المساء ذهب لينام عند أسمرا. بات يشعر بأنه وحيد جداً في منزله حيث بدأ اللون الأزرق يتقشر عن الجدران. وأحس بالحاجة لإعلامها؛ ومن جهة أخرى كانت خطوة مهمّة، قراراً.

قال: «لقد أخذت بطاقة الحزب».

كانت أسمرا تطرِّز. وقد أخذت تطرِّز كل ما يقع تحت يدها؛ طرَّزت كل بياض المنزل: الشراشف، والأغطية، والخرق، وحتى ستائر النوافذ. ابتسمت ابتسامة ماكرة، وكأنها لم تصدِّق ذلك دون أن ترفع عينيها عن تطريزها.

«أنتَ، والفوضوية إذن؟».

قال غاريبالدو: «تلك الأيام قد انتهت. في أيامنا هذه يجب أن نتَّحد، يجب أن ننظِّم أنفسنا. كان غافور على حق، الوحدة هي القوة».

وقفت أسمرا وهي تتنهَّد، فتحت خزانة بأدراج وأخذت منها بطاقة صغيرة.

قالت وهي ترميها على الطاولة: «نحن رفيقان».

نظر غاريبالدو إليها ولم يفهم فكأنها تسخر منه.

«لقد مضى زمن طويل، لاتقلق، لايرقى هذا إلى اليوم، بل إلى الفترة التي فتح فيها غافور كشكه. أنتَ كنت في الأرجنتين ترقص التانغو».

كان غاريبالدو ينظر إليها عاجزاً دون أن يجد أدنى اعتراض. فكَّت أسمرا السلسلة التي تضعها حول عنقها وزحلقتها نحوه على الطاولة. أخذ قطعة الرصاص وفهم كل شيء.

«إيه نعم! كنت أنا صلة وصل غافور. كان كلٌّ منا يوزِّع نصف الصحف، هو في الكشك وأنا في المنزل».

شعر غاريبالدو بالغليان. راح يضرب على الطاولة بقبضته. وقد احمرَّ وجهه غضباً.

«وكنتِ تتركين لي الصحف في الحديقة كل أيام السبت، كل أيام السبت! ولم تقولي لي شيئاً أبداً!».

قاطعته أسمرا: «أوه، اسمع، لقد كنت مسروراً جداً بنفسك، واثقاً جداً من عملك. أنتم الرجال تعتقدون أنكم ماهرون لأنكم تبولون على الجدران».

كان غاريبالدو يذرع الغرفة، مثل حيوان في قفص.

صرخ قائلاً: «وتقولين لي هذا الآن! الآن، بعد عشر سنوات!».

قالت أسمرا: «لاتغضب كثيراً. لم أفكِّر بهذا، سار كل شيء بسرعة قصوى. ثم إنني كنت أفكِّر بأشياء أخرى، مع قصة هذا الطالع».

تنهَّد غاريبالدو قائلاً: «آه، الطالع! أي طالع ملعون! لقد كان هَوَسَكِ. هوسك أنتِ وتعاستي أنا!».

ثم بدأ يخلع ثيابه كي يذهب إلى الفراش.

9. سينما ـ مسرح سبلنديد

أخذ يذهب إلى مسرح سبلنديد كل مساء. كان هناك الكثير من الرفاق الذين يأتون من السهول ويتناقشون، جالسين على الشرفة لتنشُّق الهواء في الخارج. كان «ثمانية وأربعون» يأتي على دراجته، حتى اليوم الذي سقط فيه عن سقالة وبقي مسمَّراً في فراشه. كان ذلك أسوأ مما لو أنه أصيب بأزمة قلبية. أما «آكل الحصى» فيقصّ ملحمته الفرنسية، مواجهته مع ذاك الثور الياباني الذي كان له رأسٌ مثل سنامٍ خارجٍ من العنق، وعينا سلحفاة لاترفّان أبداً حتى عندما تُوَجَّهُ له ضربةٌ منخفضة. قَنْطَرتُ جسدي كي لاأقع على ظهري. قال لي مساعدي: «اتَّخِذْ وضعية القنْطرة! قَنْطرْتُ لكنه كان جهداً ضائعاً، لأن الياباني قرَّبَ سنامه مني وكأنه يريد أن يقول لي شيئاً في أذني، وضربني ضربةً من رأسه على أسناني».

10. مطعم فتيات الرحمة

قال المهندس المعماري: «يجب هدم هذا الحائط. ونُبقي على الشبكة، لأنها تعطي طابعاً خاصاً، ولكن يجب إصلاحها: سنضع خلفها حجرة الثياب».

ظل مسؤول الأعمال يتقدّم في الممر المظلم، فيما وراء الكنيسة، حتى قاعة الطعام. كان المهندس المعماري يرتدي بنطالاً فاتح اللون وحذاءً له نعل مطّاطي. يحمل دفتراً صغيراً في يده ويدوّن ملاحظاته.

سأل مسؤول الأعمال: «وهذه الأحواض الرخامية؟».

كان قد وقف حائراً أمام الحوضين الحجريين الموضوعين على مدخل قاعة الطعام. ليس من الممكن أن يكونا مغسلتين: حوضان في وسطهما نافورة ماء، وليسا كذلك مخصّصان للماء المقدس. ما العمل إذن؟

قال المهندس المعماري وهو يدوّن ملاحظة: «هذا صحيح. سنحتفظ بهما الآن، وعند الحاجة سنضع فيهما نباتات أو حصى ملساء. سنرى فيما بعد».

كان يدرس قاعة الطعام، ويذرع الغرفة ليقدّر طولها، يدوّن، ويقول: «أوه ـ أوه!» كي يختبر الصوت. كتب في مفكّرته: ثلاثون طاولة.

قال بصوتٍ عال: «سنترك طاولة كبيرة تحت القبّة». لكنه راح يكلّم نفسه الآن: «للمناسبات الخاصة، الأعراس أو أشياء من هذا القبيل».

قام بنصف دائرة وخرج إلى رواق الدير. تبعه مسؤول الأعمال أدبياً. كان يوماً شفافاً مثل بعض أيام شهر آذار التي لاتبقى باردةً تماماً.

قال المهندس المعماري: «من المؤكد أنه سيكون هنا الكثير من العمل».

كان يلمّح إلى الأعشاب الضارة والصدع في حائط السور الذي يتجه النظر من خلاله إلى أسفل، نحو السهل.

قال المهندس المعماري: «مهما يكن من أمر». وعاد يكتب

ثانية ملاحظات على دفتره الصغير. كتب: رواق مغطى، صخرة كبيرة من الغرانيت (إذا أمكن، رحى مطحنة صغيرة، حديد مطروق عوضاً عن الحائط ليسمح برؤية شاملة).

قال مسؤول الأعمال: «حالياً لابد أنها بَدَّلَتْ جلودَها».

رد المهندس المعماري: «ماذا؟».

أشار مسؤول الأعمال إلى الأعشاب الضارّة.

قال: «لاشك في أنها مليئة بالثعابين. وهي موجودة هنا منذ حوالى عشر سنوات دون أن يزعجها أحد».

كتب المهندس المعماري: جرّتان كبيرتان من الفخّار المشوي.

وجد مسؤول الأعمال عصاً وغامر بالنزول إلى حدود الأعشاب الضارّة التي راح يفتّش فيها.

قال مرتاباً: «من المحتمل أنهم أقاموا صفقةً ما ولكن مَنْ تريد أن تُحضر إلى هنا، وسط الحجارة والثعابين؟».

كان المهندس المعماري قد أعاد مفكّرته وهو يدخّن سيجارة.

أجاب قائلاً: «أوه. يمكنك أن تصدّقني. لقد فعلوا عين الصواب. سيصبح هذا المكان، بعد عشر سنوات، منطقة سياحية مترفة».

قام بحركة إلى الوراء وقال: «الجبل، والبحر».

الآن، كان يمد ذراعه أمامه بعيداً، وتابع مسؤول الأعمال أصبعه الذي يشير إلى ماوراء الصدع في حائط السور، وإلى ماوراء غيوم أشجار الزيتون، إلى شريطٍ أزرقٍ في الأفق.

11. إسم لبورغو

راحت تمر شاحنات، تسحب مقطورات ضخمة، تجعل بورغو تهتز ليلاً. سائقو شاحنات من الشمال، لهجاتهم تكاد لاتُفهم، يطلبون شرائح عجل على طريقة ميلانو في مطعم لم يؤكل فيه إطلاقاً شيء

آخر غير حساء الفاصولياء. أصبحت عقدة السكة الحديد محطة حقيقية مع كوّتها الزجاجية واسمها المنقوش حسب الأصول على لوحة معدنية مطلية بالخزف.

بورغو آلّي كونسيرف

مع أن أحداً لم يدعُ بورغو هكذا.

12. *قانونٌ خِصْيَتَيّ*

أقيمت منصة ثلاثية الألوان في منتصف الساحة. وطوال أربعة أيام أذاع مكبِّر صوت ثُبِّت بين «إيطاليا» و«الديمقراطية» النشيدَ الوطني وأغنية تتحدَّث عن السلام والحرية، بينما كانت سيارة مغطاة بالورق الأزرق تنشر وجه المتحدِّث المقبل على خلفيةٍ من المنشورات البيضاء.

«هل فهمتَ من سيأتي؟ إنه الحزب الذي يقود إيطاليا. سيكون هناك عمل للجميع، سيفتحون مصنعاً على الشارع الرئيسي الذي يقود إلى المستنقعات الجافة».

في المساء أصبحت الساحة سوداء من شدة الازدحام. كان الدرك يقيمون الحراسة في الشوارع لتدارك الاضطرابات والصخب؛ ومات فونوغراف التعاونية الزراعية عندما قطع عنه التيار الكهربائي مصدراً صوتاً أجش: تشيتشي، بيبي، أويه، أويه، أويه»[32].

بدأ المتحدِّث خطابه وسط صمت قاتل، مباشرةً بعد انتهاء مصلصلة(*) سعيدة من نوع «المسيح قام». بدأ قائلاً بأنه يسعده حقاً أن يتحدَّث في قرية نشيطة كهذه وتحترِم الله، حيث كان يمكن قراءة التواضع على وجوه النساء والإرادة الصادقة على وجوه الرجال. بعدئذٍ قال إن الصناعي الذي بنى مصنعه على الطريق الرئيسي

(*) مصلصلة (مجموعة أجراس متناغمة للدقّات).

للمستنقعات الجافة، يجب اعتباره فاعلَ خيرٍ، اختار «هذا الموضع» لتشغيل عمَّالٍ على بعد مئات الكيلومترات من منزله. وكان يُفْهم من نبرة صوته أن الذين ولدوا في «هذا الموضع» بائسون حقيقيون. ثم تكلم عن الوضع: عليهم التحلِّي بالصبر، وروما لم تُصْنَع في يوم واحد، وأنهم نجوا من كارثة عظيمة، وسيجد الجميع عملاً عاجلاً أم آجلاً؛ وأخيراً، إن أكثرهم إثارة للإضطراب (هنا رفع أصبعاً مهدِّداً وكأنه يوجِّه كلامه لأطفالٍ غير مطيعين) سيسوُّون حساباتهم مع القانون.

عندئذٍ ارتفع، من الصفوف الأولى للحشد، صوتَ غاريبالدو القوي:

«نعم، قانون خِصْيَتَيَّ!»

لم يتسنَّ له الوقت ليقول أكثر من ذلك: إذ أنَّ الدرك سيطروا عليه وسحبوه من وسط الحشد الذي أفسح مجالاً للمرور نحو شاحنةٍ صغيرةٍ انطلقت في أقصى قوَّتها. بدأ الحشد يتموَّج دون نوايا سيئة. ومع ذلك شعر المتحدِّث بالخوف ونزل عن المنصَّة بسرعة بين صفيّ حماية من رجال الدرك.

13. اقتراح

لم يكن غاريبالدو يعرف الشخص الذي يتكلَّم: كان مايزال صبياً صغيراً، له عينان صافيتان، ربما أتى من ضيعة صغيرة مجاورة.

ليس الأمرُ في أنهم يكسَبون جيداً، كانت حياة حقيرة. لكنها أفضل من الذهاب لقطع القصب. ثم إن القصب لم يعد الآن موجوداً، فقد جُفِّفت المستنقعات وأنت تتحدث عن توزيع للأراضي، هذه لي، وهذه كانت لي، وهذه ستكون لي، ونُهبَت الفاتوريا فيتشيا. ما الذي بقي لنا في بورغو؟ أربع مساكب طينية عند سفح الجبل.

كانت ردهة المسرح مكتظَّة. وهناك نساء أيضاً يجلسن في

الخلف. وفي الخارج تسمع جلبةً من الشارع، يمرِّر أحدهم رأسه من الباب، يلقي نظرة دائرية ويعود.

قال آكل الحصى: «سأذهب لألقي نظرة، هناك شيء في الجو لايروق لي البتة».

لاحظ غاريبالدو قائلاً: «إنه شاب، ولكن يبدو أنه يعرف ما يقول.

- إنه ابن للمدعو «ثمانية وأربعون».

قال غاريبالدو: «لقد حاربنا معاً».

وقال آكل الحصى: «إن ثمانية وأربعين طريح الفراش الآن، مشلول تماماً».

صمتَ الشاب لكي يصيخ بسمعه للضجة القادمة من الشارع.

فقال أحدهم في الردهة: «تابع».

كان الشاب يقول إن الجميع يعرفون الوضع. ومن الذي كان يصدِّق التسريحات الاقتصادية؟ إنها أعمال انتقامية وإلا لماذا تمَّ تسريح الذين وضعوا ملصقات الإضراب فقط؟ عشر عائلات أصبحت في الحضيض تماماً، لا، ولكن ممن يسخرون؟ والآن الكلمة للجميع.

قال غاريبالدو: «عندي اقتراح».

توقف الضجيج، والتفتت الصالة.

فقال ابن ثمانية وأربعين: «تعال إلى المنصَّة».

قال آكل الحصى وهو يلكزه بمرفقه: «اذهب إلى المنصة. وسأذهب برهة للنظر من الباب».

بينما كان غاريبالدو يجتاز الممر سُمِع تصفيق ترحيب يعلو بأحد القادمين الذي راح يحيِّي بظهره رافعاً ذراعيه. ساعده الشاب في الصعود إلى المنصَّة.

عبر مكبِّر الصوت قال: «أيها الأصدقاء والرفاق، أنا سعيد برؤيتكم ثانية».

حدث هرج ومرج، أخذوا ينادونه ويقولون له: إيه، كيف الحال؟ فرض غاريبالدو الصمت بحركةٍ من يده.

قال: «عندي اقتراح».

في تلك اللحظة ظهروا فجأةً في الصالة. كان عددهم قليلاً، يضعون الخوذ وواقيات وجه تنزل على وجوههم في وضعٍ جاهز للهجوم. أوحوا للحضور بأنهم يلاحقون شخصاً، غلاماً من فرقة المضربين(*) بقي في المصنع، لكن ذلك كان ذريعة للضرب بشدة. وقع آكل الحصى في وسطهم وتقاذفوه فيما بينهم مثل دمية متحركة، بضربات الهراوات وأخمص البنادق. دام ذلك بقدر وميض برق، ولم يتسنَّ لهم الوقت للردّ حتى أصبحوا في الخارج مصطفِّين خلف شاحناتهم الصغيرة. وراح مدير الشرطة يقول بمكبِّر صوت، أنه من أجل النظام العام يجب إخلاء المسرح.

14. *النوافذ على الساحة*

كانت ليلة هواء ساخن آتٍ من البحر. وتخطّت ريح «ليبيكيو» العجيبة هذه حدّ الأيام الثلاثة المعتادة وغلّفت بورغو بزوابع كبيرة، مثل هجمات مراوح. وقفت أسمرا فوق الوسائد وأرهفت السمع نحو الضجة. كانت تأتي من النوافذ.

قالت وَهي تهزّه: «غاريبالدو، النوافذ».

غيَّر غاريبالدو وضعه أثناء نومه. وقال: «أية نوافذ؟». .

نهضت أسمرا حافية القدمين ولَبِسَت رداءها المطرّز. وقرَّرت، وهي واقفة في منتصف الغرفة، الوجهة التي ستأخذها. كان الضجيج ثابتاً ومتساوياً، ويأتي من جميع النوافذ معاً: كان تأوهاً للمفاصل والخشب، مثل عظامٍ مصابة بالتهاب المفاصل.

(*) فرقة مضربين (جماعة تقف على مدخل مكان العمل لتسهر على تنفيذ أوامر الإضراب).

كرَّرت قائلة: «غاريبالدو، النوافذ».

لكن غاريبالدو كان ينام بهدوء ويحلم في العتمة الرطبة لقبر، خلف شاهدة. توقّف الألمان أمامها تماماً وأشار الضابط إلى اللوحة المعدنية.

قال الضابط: «اخرج من هناك، أنت هالك هذه المرة أيضاً. لقد أوقعتَ نفسك في فخك بالذات».

خرج غاريبالدو مذهولاً من النوم المتقطِّع، واستدار لينظر إلى الحجر. لكنها لم تكن شاهدة القبر، إنها نافذة غرفته.

قال الضابط: «هذا أكثر مما ينبغي، تختبئ في قبر وتُحضر معك نافذة من منزلك».

قالت أسمرا: «إنها نوافذ المنزل».

فتح غاريبالدو عينيه واحتاج لعدة ثوانٍ ليدرك أن اللِّباس الرسمي للضابط هو الرِّداء المطرّز لأسمرا.

«أية نوافذ؟

ـ ألا تسمعها؟ إنها نوافذ المنزل».

ابتسم غاريبالدو وكأنه يتذكر شيئاً. وتطلّع إلى ظلمة الغرفة الحقيقية بنظرةٍ ناقِهٍ مليئة بالنعاس. قبل عشر سنوات تقريباً كان ينام هكذا في الجبل، حيث تنتهي أشجار الكستناء ويبدأ الدغل؛ كان في صوت الضابط الألماني طقطقة حصىً.

قال آكل الحصى: «إنها نوافذ».

تمتم غاريبالدو: «أية نوافذ؟».

حاصره برد، برد لم يشعر به أثناء نومه. كان فجراً من الضباب اللاصق مثل بياض بيضة يبلّل التخوم السوداء لأشجار الكستناء. كان النهار بلا نهاية مع شمسٍ منتصف ليلٍ قادمة من السهل وبريق أحمر. وكان رفيق قد قال: «إنه حريق، ربما هي قنبلة تائهة سقطت على مزرعة».

ردَّد آكل الحصى مشدوهاً: «كانت نوافذ» راح يضم بندقيته ويشير إلى شيء في الهواء بحركة وداع غامضة.

«إنه طيران نوافذ».

شدَّ غاريبالدو الغطاء على كتفيه.

«لابد أنه سرب إوز».

طحنت أسنان آكل الحصى: «كلا. إنها خضراء. إنها النوافذ».

قال غاريبالدو وهو يقف: «اذهب للنوم، أنا أتولى الحراسة». لكن آكل الحصى لم يتحرَّك، ظل متحجِّراً في وقفته.

قالت أسمرا: «ألا تسمع النوافذ، ألا تسمعها؟».

فقال غاريبالدو: «لابد أنها ريح «ليبيكيو»».

قالت أسمرا: «إنها تريد الرحيل. تريد الرحيل ثانية. سيحدث شيء ما، سيكون هناك عنف».

وقف غاريبالدو وتاه في الغرفة.

قال: «إنها الريح. هذا بسبب الـ «ليبيكيو»».

15. *الموت لايُشترى*

(لوحتان مقدَّمتان في واحدة، بسبب معاصرتهما).

صرخ *غاريبالدو: «هاكم ما هو اقتراحي»*.

تربَّع على أقدام نصب «الديمقراطية»،ممرِّراً ذراعاً حول خصره كي لايقع. خيَّم صمت كبير. كان النصب منطقة محايدة، حاجزاً بين الحشد وصفوف رجال الشرطة.

قالت أسمرا: «من حسن الحظ أنكِ قد جئتِ. حدث ليلة أمس أمر غريب».

وقصَّت ذلك على زلميرا وهي تمزج البيض مع الطحين في صحن الحساء. لم تقل زلميرا شيئاً.

غامرت أسمرا قائلة: «هل هو نذير؟».

فردت زلميرا: «لم يحدث هذا في منزلك فقط. فعلت كل نوافذ الساحة الشيء ذاته، وتحرَّرت بعضها من مفاصلها ووقعت في الشارع.

سألت أسمرا: ماذا يمكن أن يعني هذا حقاً؟

تحركت لثُتا زلميرا بصعوبة وهي تقول: يمكن أن يعني أشياء كثيرة. لاتجعليني أتذكَّر مرة أخرى ماقاله لي دون ميلفيو.

سألت أسمرا: وآكل الحصى؟».

كانت زلميرا قد ذهبت لرؤيته. أخذته فتاة فريول بين ذراعيها مثل طفل ووضعته على أريكة، لأن حمله إلى غرفته يشكِّل خطراً. راح يطحن بأسنانه الرائحة الكريهة للخل الذي أعطوه إياه لإنعاشه. قال الطبيب، الذي لم يكن على استعداد لتحمُّل مسؤولية إدخاله إلى المستشفى، إنه تقلُّص لعضلات وجهه، ولن يصل حياً، ومن الأفضل إبقاؤه هنا.

أجابت زلميرا: «لقد حطَّموا جمجمته». ثم جلست على كرسي منخفض كما اعتادت أن تفعل وأغمضت عينيها، مبحرةً في ارتداد أمواج شيخوختها. استدارت أسمرا لتبكي.

«أي عيد ميلاد حزين لغاريبالدو. بالأمس حين رأيته يصل إلى العتبة كنت قد وعدته بقالب حلوى».

أعطى قائد الشرطة الأوامر لمرؤوسيه الذين يقفون إلى جانبيه ودل على غاريبالدو بحركةٍ من رأسه. كان الحشد قد تقدَّم وأحاط بقاعدة التمثال، الذي لم يكن بالإمكان هدمه، فوجب الهجوم.

صرخ غاريبالدو: «وأنتَ، يا صاحب العرائس، اخلع عن صدرك هذا الوشاح الثلاثي الألوان لأنك لاتمثِّل أية إيطاليا، أنت لاتمثِّل إلا أسيادك!».

خلع قبعته ووضعها على رأس الديمقراطية.

قال غاريبالدو: «غيدو البدين يحتضر، ورأسه مصدوع مثل بطيخ أحمر».

أصبح الصمت شاحباً.

«لقد كسّروه بالضرب، ويريدون إعطاءنا الآن مكافأة. ليرتان إضافيتان للعبيد إذا ما استقاموا، ثم نشطب على ما مضى».

تابعت أسمرا: «كان واقفاً على عتبة الباب بيده زهرة وقد خلع قبعته». راحت الآن تروي لنفسها وتتحدّث داخلياً لأن زلميرا تاهت في هوة شيخوختها. «فقال لي عندئذٍ: هل أستطيع الدخول؟ فأجبته: غاريبالدو، هل أصبحت حراً؟ قال: ابتداءً من اليوم. رغبتُ في تقبيله كما لو أنه مات. وقلت له: في الوقت المحدّد تماماً لعيد ميلادك سأحضِّر لك كعكة بالفاكهة مثل التي كنت أصنعها لك فيما مضى. فقال لي: آه، غداً عيد ميلادي. لم أكن أذكر ذلك».

صرخ غاريبالدو: «والآن يريدون شراءنا بأربع ليرات. لكن الموت لايُشترى!».

عادت زلميرا ثانية إلى سطح الواقع. حركت لثّتيها بصعوبة قائلة: «كم عمره؟».

أجابت أسمرا: «ستون عاماً». وفي الوقت الذي تفوّهت فيه بذلك فهمت كل شيء. رأت نفسها ثانية، ذات ليلةٍ، قبل سنوات عديدة، منحنيةً فوق طبق، تراقب مذعورةً السميدَ الذي يدفعه نَفَسٌ وهمي، وهو يشكِّل مخروطاً في وسطه حفرة. ثلاثون، زائد ثلاثون للابن الذين امتنعت عن إنجابه. عندئذٍ، مدفوعة باليقين، انطلقت إلى الخارج وأخذت تركض وهي تمسح يديها بوزرتها المزيّنة بثمرتي فراولة على الجيبين. فقدت خفّاً عند البوابة، وكي لاتضيع وقتاً في ارتدائه ثانيةً رمت الثاني أيضاً بركلة من قدمها.

صرخ غاريبالدو: «هاكم أيها الرفاق، الإجابة الوحيدة!».

وصلت أسمرا إلى نهاية الساحة وتقدّمت راكضة. كانت تقوم بحركات كبيرة يائسة.

صرخت: «غاريبالدو! أصبح عمرك اليوم ستين عاماً!».

هل رآها غاريبالدو، وهل فَهِمَ كيف فَهِمتْ بأن طالعَهُ يتحقق في هذه اللحظة بالذات، هذا ما لن يستطيع أحد أن يعرفه. عندئذ سُمِعَ انفجار. انفجار واحد فقط. أرخى غاريبالدو عناقه للتمثال ودار ببطء حول نفسه. فتح قبضته المرفوعة فتدحرج الحجر على الساحة. وبينما هو يتابعه في سقوطه غمغم بشيء، لكن قليلين هم الذين سمعوه.

سر زلميرا

عادت زلميرا أدراجها وكتفاها مقوّسان، وكأنها تئن تحت حمل ثقيل. أحاطت بها النساء.

سألنها: «ماذا قال لكِ.

ـ لاشيء، لم يقل شيئاً.

ـ لكنه كلّمك نصف ساعة، وكنتِ تقومين بحركات كثيرة!».

قالت زلميرا: «إيه!».

وابتداءً من ذلك اليوم ازداد كتفاها تقوساً أكثر فأكثر، لكنها كانت تجيب كل الذين يسألونها عمّا قاله دون ميلفيو: «إيه!».

بقيتْ على هذا المنوال عدة سنوات، دون أن تفصح عن شيء البتة لأي شخص كان، ولا حتى للأسقف الذي استدعاها وحاول أن يتملّقها وهو يَعدها بإيراد مدى الحياة: «إيراد متواضع، في الوقت الراهن، نظراً للظروف، ولكن مع الزمن...».

لكن زلميرا عاندت في قول: «لماذا لاتذهب وتسأله هذا بنفسك. يكفي أن تذهب إلى المغارة وتناديه: «سكروتشي، أوه، سكروتشيييي!» وهو يجيب، وإذا ما أراد، فسيعيد لك ماقاله لي».

عندما حان موعد موتها، بعد زمن طويل من نهاية هذه القصة، غيَّرت رأيها تغييراً غير منتظر إطلاقاً، وطلبت الكاهن الجديد. وكان هناك أيضاً سيِّدنا الذي يترصَّدها منذ يوم وليلة. فقد أقام في الفندق منذ أن سرت إشاعة بأنها تحتضر. أخيراً عزمت زلميرا ونادت قائلة:

«أريد أن أكشف ماقاله لي دون ميلفيو».

قرَّب الكاهن أذنه من الحشرجة. كان سيِّدنا، الحذر، واقفاً في ظل الغرفة الخفيف؛ وكانت هناك أوامر محدَّدة من الإدارة البابوية بألا يتمكَّن أي شخص غريب من معرفة سر زلميرا. ومنذ الآن خلقت أسطورة حول سكروتشي وأفقدت الشائعات الثقةَ بالكرسي الرسولي.

قال الكاهن: «تشجَّعي».

حتى سيِّدنا نفسه لم يتمكَّن من السيطرة على نفسه:

«إذن؟ إذن؟».

«دون ميلفيو...» رفعت زلميرا نفسها على مرفقيها وأجالت نظرة تائهة في الغرفة. «دون ميلفيو...» بدا أنها لن تتوصَّل إطلاقاً إلى ذلك، كان نَفَسها يختنق في غرغرة. ثم قالت ودفعة واحدة وكأنها تبصق الضيق الذي يسد حلقها، في حشرجة:

«قال لي دون ميلفيو إن المساواة لاتتحقق عن طريق الآلات الهيدروليكية».

ملحق تاريخي

ملاحظات المترجم:

1. ڤيكتور إيمانويل III، ملك إيطاليا، تنازل عن الحكم لصالح ابنه في 9 أيار 1946. وتأسست الجمهورية في الثاني من شهر حزيران التالي، في استفتاء شعبي. وتشير المادة الأولى من الدستور إلى أنها تأسست على العمل.
2. أصبح غاريبالدي، بعد أن حارب ضد الديكتاتوريات في الأرجنتين والأورغواي، أداة الوحدة الإيطالية، ومن هنا جاءت تسميته «بطل العالَمين». وبفضل مآثره الحربية، أُعلِنَ ڤيكتور ـ إيمانويل II ملكاً على إيطاليا في 27 نيسان 1861. وضُمَّت دوقية «توسكانيا الكبرى» إلى مملكة ساردينيا في آذار من العام 1860.
3. الـ «فاتوريا» في إيطاليا هي أكثر من مزرعة، إنها أراضٍ زراعية كبيرة تتضمَّن عدة ممتلكات مجتمعة في حقل واسع يديره في أغلب الأحيان وكيل أعمال. ويقيم هذا الأخير في منزل السيِّد الذي توجد حوله مساكن العمَّال الزراعيين، ومستودعات للعتاد وملحقات أخرى.
4. «هنا نصنع إيطاليا أو نموت»: نطق غاريبالدي بهذه الكلمات في صقلية في 15 أيار 1860 ، بينما كانت قوات «القمصان الحمر» يقاتلون في كاتالافيمي ضد قوات ملك «الصقليَّتين».
5. كوارتو وڤولتورنو: هذان الإسمان مرتبطان بحملة «الألف» التي

قادها غاريبالدي: وبالفعل بدأت هذه الحملة في كوارتو، وهي ضيعة قريبة من «جنوة» حيث أبحرت قوات «القمصان الحمر» إلى صقلية وانتهت بالقرب من نابولي، على ضفاف نهر ڤولتورنو حيث هزم غاريبالدي قوات «آل بوربون» مؤكداً بذلك نهاية مملكة الصقليَّتَيْنْ.

6. أنيتا: الإسم الأول لزوجة غاريبالدي الأولى. أصبحت هذه البرازيلية التي التقاها في ظروف رومانسية، عندما كان يحارب من أجل جمهورية «ريوغراندي دوسول» الرفيقة البطلة لمعارك غاريبالدي.

7. في أيلول عام 1870 ، دخل جنود ڤيكتور ـ إيمانويل II أخيراً إلى المدينة التي كانت ماتزال ملكاً للدولة البابوية، بعد أن أحدثوا ثغرة في سور روما على مستوى «بورتابيا». وأُعْلِنَت روما، بعد أن ضمَّت باستفتاء عام، في الثاني من شهر تشرين الأول التالي، عاصمة المملكة.

8. بدأت إيطاليا، ابتداءً من العام 1887 ، سياسة التوسُّع الاستعماري في أفريقيا، ولاسيما في أثيوبيا.

9. فيليبو توراتي (1857 ـ 1932): سياسي إيطالي، اشتراكي ذو اتجاه إصلاحي.

10. هومبير (أومبيرتو) II، ولد في نابولي من العام 1904 ، ومات من العام 1986 .

11. مقطع مأخوذ من الرواية الشهيرة جداً «إيدموندو دي أميسيس»، كووري («قلوب كبيرة»)، 1886 .

12. فيليس كاڤاللوتي (1842 ـ 1898): مؤسِّس «حزمة الديمقراطية»، ساهم في نشر الماركسية في إيطاليا مع بقائه متأثِّراً بالرومانسية الغاريبالدية. مؤلِّف أشعار ملحمية ومسرحيات، وكتب أيضاً كلمات «نشيد الألف».

ـ شيوربادورا: شخصية من القصص الشعبية التوسكانية، ويعني هذا الإسم «الرأس العنيد».

13. أبوستولو زينو: كان الفوضويون(*) يرفضون تقليدياً تسمية أولادهم أسماء مسيحية. لهذا تحمل هذه الشخصية إسم كاتب واقعي من القرن الثامن عشر، ولذا نجده يتمسك به على هذه الصورة.

14. أسمرا: أصبحت هذه المدينة الأثيوبية، التي استولى عليها الإيطاليون عام 1889 ، عاصمة مستعمرة أرتيريا حتى العام 1941.

15. سيشوبيبي هو اللقب الذي أعطاه الإيطاليون لإمبراطور النمساء فرانسوا ـ جوزيف.

16. ماسيست: شخصية فيلم «كابيريا» المتميِّزة بقوتها الخارقة.

17. بيكوس بيل: شخصية الكاوبوي (راعي البقر) رامي الوَهَق(**) المألوف لدى الأطفال الذين كانوا يقرؤون «كوربييرينو دي بيكولي».

18. أنريكو مالاتستا (1853 ـ 1932): فوضوي مدافع عن الشيوعية الفوضوية. نشَّط الوحدة النقابية الإيطالية وناضل ضد الفاشية كونه معارضاً للحرب العالمية الأولى.

19. غروسيتو: مدينة في توسكانيا جرت فيها معارك عمّالية هامة، خصوصاً خلال «الأسبوع الأحمر» في حزيران عام 1914 .

20. كابيريا: فيلم استعراضي كبير لـ «ج. باسترون» (1914) كان نجاحه باهراً: فمن جهة كانت الحركة، الواقعة خلال الحرب البونية(***) الثانية، تمجِّد الغزوات الاستعمارية الإيطالية؛ ومن جهة أخرى كانت نوعية الإخراج والابتكارات التقنية مثيرة للإعجاب.

21. أغنية الثوّار العالميين الذين لجؤوا إلى سويسرا في لوغانو.

(*) فوضوي (نصير الحركة المطلقة).

(**) وَهَق (حبل ذو أنشوطة لاقتناص الخيول البرِّية والأبقار المتوحِّشة).

(***) البونية (اسم حروب ثلاث نشأت من النزاع بين روما وقرطاجة على السيطرة في المتوسط الغربي بين 246 ـ 146 ق.م).

22. اتُخذت هذه الأغنية، التي كانت شعبية في فترة المعارك ضد النمساويين كنشيد رسمي للحزب الفاشي فيما بعد.
23. بوديستا، تحت الحكم الفاشي، قائد الإدارة، الذي يحل محل رئيس البلدية.
24. ماكاليه: مدينة صغيرة في أثيوبيا حيث جرت المرحلة الأولى من الحرب الإيطالية ـ الأثيوبية الأولى. انتهى حصار قلعة ماكاليه الصغيرة بعد الهزيمة الإيطالية.
25. فيديرال: في الزمن الفاشي سكرتير اتحادية محليّة لمجموعة مقاتلين.
26. تمجّد الدعاية الفاشية الأسطورة القديمة للـ «الإمبراطورية الرومانية»،التي على إيطاليا الحديثة أن تكون وريثتها، مبرِّرة على هذا النحو، عطشها الاستعماري لاعادة إنشاء مستعمرات حول البحر المتوسط، حيث يكون «الشاطئ الرابع» الطبيعي، هو أفريقيا.
27. طيّار إيطالي مشهور كان يحارب في إسبانيا إلى جانب «الفرانكويين».
28. كانوا يدعون رجال المقاومة الإيطالية بالأنصار.
29. ترتيل على شرف السيدة العذراء.
30. الـ «أونيتا»: مجلة أسبوعية تساند المواقف الرسمية للحزب الشيوعي الإيطالي.
31. ألسيد دي غاسبيري (1881 ـ 1954): رئيس المجلس ووزير الشؤون الخارجية من عام 1945 إلى عام 1954 ، كان واحداً من قادة الديمقراطية الإيطالية، ساهم في وصولها إلى الحكم غداة الحرب.
32. لازمة أغنية شهيرة في الثلاثينيات، بقيت شعبية حتى نهاية الخمسينيات.

مقدمة للطبعة الثانية
بقلم سيزار سيغر

من المفيد، ومن الممتع أيضاً، العودة إلى الرواية الأولى لأنطونيو تابوكي، أحد أكبر كتّاب اليوم دون شك. وقد قدّمتْ الرواية الأولى عام 1975 بعد فوزها بجائزة «لينيديتو»، على هذا النحو: «بلدة توسكانية في المستنقعات، قريبة من البحر. تجتاز ثلاثةُ أجيالٍ من المحاربين، بتقليدٍ عائلي وبالغريزة، تاريخَ إيطاليا، من الوحدة حتى التحرير، وتعطي للقميص الأحمر الانعكاسات السوداء للفوضوية، لتصنع منه علماً شيوعياً. شخصيات ذات أسماء لها دلالات: غاريبالدو، كوارتو، ڤولتورنو، يرمون أنفسهم أو يُدْفَعون، ابتداءً من قريتهم الصغيرة، في رحلات مليئة بالمخاطر، أو في حروب في أوروبا، وأفريقيا، والأمريكيتين، تماماً كما تتوسّع حياتهم الزاهدة في أعمال ومشاريع مليئة بالقوة، حتى الموت في المعركة ضد الأسياد (الذين يمثّلهم الحرس الملكي، خفراء الصيد، الفاشيون من كل نوعٍ، والشرطة الجمهورية). نساءٌ لايواجهن الواقع فقط، بل الأهواء والطوالع، في أشكال تشبهُ لعبةً غمّيضة مأساوية ـ كوميدية. كاهن شعبي(*) ومفكّر حر، ينتهي كخلد، متأمّلاً، تحت الأرض، أخطاء الكنيسة. هذه هي بعض الأدوات التي سيشيّد بها تابوكي هذه «الحكاية الشعبية»، التي يرجع طابعها الشعبي إلى محتواها أساساً (وأشير أيضاً إلى التلوُّن الحاد والقضايا الظاهرة الباطنة(*) الجديرة بإعلانات «العصر» الأكثر حيوية)، أمّا ما يتعلق بالحكاية فإن المعالجة السردية هي التي تُنتِجُهُ: مقاطع قصيرة

ومقاربات متقطِّعة، وتبدلات مدهشة في النبرة، بحيث أن الجلال الذي يتجلى في قلب اليوميّ، يحفظ، بل يُقوّي المظاهرَ الهزلية والساخرة الحاضرة في لاشعوره الأسمى. توازنات حسَّاسة يحافظ تابوكي عليها، مُقطِّعاً، بقدرة أكيدة على الإبداع، الفصولَ القصيرة إلى لوحات صغيرة مؤطَّرة بعناوين مشبعة بالذكاء، أو منظِّماً هذه اللوحات بحيل من التقديم والتداخل تشكِّل القوة الكامنة للتوتر؛ أو أيضاً، بتبنِّي المفردات ذات الفعالية الريفية، غير المألوفة بين الروائيين التوسكانيين اليوم. إن «ساحة إيطاليا» هي حكاية شعبية تتمتع برهافةٍ تجعل جرأتها غير مرئية.

يعرف قرّاء تابوكي بأي نفاذٍ، وحتى بأية براعةٍ طوّر فيما بعد إبداعاته الرائعة، محققاً العالمية، التي هي أيضاً من النوع الثقافي وتقدِّم فسحةً لاتنضب لِبُناهُ الذهنية، وواضعاً تقنيات عرض قيِّمة وتكاد تكون غير محسوسة ودقيقة جداً. إن من المفيد أكثر إعادة قراءة هذا الكتاب الآن، فهو يبقى جميلاً جداً، حتى لو قارناه بالكتب التي تلته: إنه يظهر أصولاً توسكانية ريفية لم ينكرها المؤلِّف في عالميته. معرفة تابوكي قبل الكتاب ستكون متعة، أو اكتشافاً للمعجبين العديدين لتابوكي الذي بات معروفاً أكثر.

سيزار سيغر

1993



ساحة إيطاليا

من المفيد ومن الممتع أيضاً العودة إلى الرواية الأولى لأنطونيو تابوكي، أحد أكبر كتّاب اليوم دون شك. وقد قُدِّمتْ الرواية الأولى عام 1975 بعد فوزها بجائزة «لينيديتو»، على هذا النحو: «بلدة توسكانية في المستنقعات قريبة من البحر. تجتاز ثلاثةُ أجيالٍ من المحاربين، بتقليدٍ عائلي وبالغريزة، تاريخَ إيطاليا من الوحدة حتى التحرير، وتعطي للقميص الأحمر الانعكاسات السوداء للفوضوية، لتصنع منه علماً شيوعياً. شخصيات ذات أسماء لها دلالات: غاريبالدو، كوارتو، ڤولتورنو، يرمون أنفسهم أو يُدْفَعون، ابتداءً من قريتهم الصغيرة، في رحلات مليئة بالمخاطر، أو في حروب في أوروبا وأفريقيا والأمريكيتين، تماماً كما تتوسّع حياتهم الزاهدة في أعمال ومشاريع مليئة بالقوة حتى الموت في المعركة ضد الأسياد (الذين يمثِّلهم الحرس الملكي، خفراء الصيد، الفاشيون من كل نوع، والشرطة الجمهورية). نساءٌ لايواجهن الواقع فقط، بل الأهواء والطَّوالِع، في أشكال تشبهُ لعبةَ غمّيضة مأساوية ـ كوميدية. كاهن شعبي ومفكِّر حر، ينتهي كخلد، متأمِّلاً تحت الأرض أخطاء الكنيسة. هذه هي بعض الأدوات التي سيشيِّد بها تابوكي هذه «الحكاية الشعبية»، التي يرجع طابعها الشعبي إلى محتواها أساساً.

إن «ساحة إيطاليا» هي حكاية شعبية تتمتع برهافةٍ تجعل جرأتها غير مرئية. ويعرف قرّاء تابوكي بأي نفاذٍ، وحتى بأية براعةٍ طوَّر فيما بعد إبداعاته الرائعة محققاً العالمية، التي هي أيضاً من النوع الثقافي وتقدِّم فسحةً لاتنضب لِبُناهُ الذهنية.